غـزوة بـدر
دروس في التربيـة

إعـداد
عبد المجـيد حامـد صبح

الطبعة الأولى
١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م

دار البشير
المنصورة

بين يدى البحث

ثلاثة كتب لمن طلب الحقيقة : حقيقة وجوده ومصيره . وحقيقة الكون والحياة .

كتاب الكون المنظور ، وكتاب الله المقروء :القرآن ، وكتاب الله الحى : سيرة محمد ﷺ .

كثيرة هى الكتب التى سردت السيرة النبوية الشريفة ، وجمعت وقائعها ، وعنيت فيها باستقصاء الأحداث ، والأسماء ، والأماكن ..

ولكنها ، على كثرتها – فيما أعلم – لم تتناول تلك الوقائع والأحداث من حيث ماحفلت به من دروس التربية ، وقواعد الاجتماع ومنهج السلوك .

وغزوة بدر ، والأنفال سورتها ، كبرى وقائع السيرة النبوية ، ولعلها أغناها بالدروس البانية ، والقواعد المؤسسة ، ومناهج العلاقات .

وقد وفقنى الله إلى إظهار بعض هذه الدروس ، واستنباط بعض تلك القواعد ، رجاء أن تكون قبساً يهتدى به نابتة الشباب ، ودرباً تسلكه الأمة ، وأن تكون منهجا ينسج على منواله الباحثون ، ويكتب على غراره الكاتبون ﴿ **وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب** ﴾ .

إعداد

١ ـ قضى رسول الله ﷺ فى مكة ثلاثة عشر عاماً ، كانت حكمة الله تعمل فيها فى خفاء يستخفى على أعين الناظرين ، ورحمته تصنع فى قسوة تستخف الذين لا يوقنون ، وعدله يحصى من غير فوت ، والهدف البعيد يعمق جذور الدعوة ؛ ليكون أصلها ثابتاً ، وفرعها فى السماء ، ولتطيب ثمارها للذين من بعدهم ، وليتفيأ ظلالها عن اليمين والشمائل ، ولتسمق فروعها حتى أعلى الشمال ، وأقصى الجنوب .

ثلاث عشرة سنة تبدو ، فى النظر البشرى المحدود ، أسواط عذاب تكوى بها جنوب المستضعفين وظهورهم ، وتتحكم فيها كلمة الشرك وتحكم ، ويعلو فيها صوت الباطل ويستنسر ، ويسام فيها المؤمنون الخسف ، ولا يجدون النصَف .

ثلاث عشرة سنة فتن فيها ذوو المال ، وأصحاب الجاه ، ومن لهم ـ القوة ـ المسلمين ، فى قلة عددهم ، وعدم حولهم وقوتهم ..

أما صاحب الدعوة ﷺ فقد عبرت عن حاله كلماته البالغة البليغة ، إذ قال ، يشكو إلى ربه : إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى ؟!

هكذا كانت حال من آمن بمحمد ، حال استوجبت التثبيت مع أصحابها من السماء ﴿ **ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى**

يريدون وجهه ﴾ ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ﴾ .

وهكذا كانت حال محمد ﷺ : أصيب كبيرا باليتم فى قومه ، كما أصيب صغيراً باليتم فى أبويه . حال اقتضى ـ من السماء ـ توبيخهم على غلوهم فى عدائه ، وقطع رحمه ﴿ **قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى** ﴾ .

٢ ـ لكن هذه القسوة الظاهرة كانت ، فى باطنها خير إعداد لهؤلاء الذين سوف يحملون الدعوة بأثقالها ، دعوة السماء الخاتمة ، وما فيها من تكاليف تؤود الراسيات ، مما يناسب عظمتها ، وعمومها ، والخلود .

وما كان هؤلاء الرجال ـ بغير هذا الإعداد البادى القساوة ـ كفوا لهذه الرسالة ، فى أصالة صفاتها تلك : العظمة ، والعموم ، والخلود ، واختتام كلمة السماء وحياً إلى الأرض .

فلم يكن عجبا أن يكلف هؤلاء الرجال ـ إذا لقوا عدوهم زحفاً ـ أن يثبت الواحد منهم لعشرة منهم ، رخصةً ، ولا ثنين ، عزيمةً . وأبى عليهم دينهم ، وما نشّأهم عليه ، ورشّحهم له ـ أن يثبتوا واحداً لواحد !

ولذلك ، أيضاً ، لم يك يثير العجب ، وإن أثار الإعجاب ، قولهم للنبى ، عليه السلام ، حين استشارهم ، بعد أن فاتتهم ، يوم بدر ، العير ،

غير ذات الشوكة ، ولم يبق إلا النفير ، ذو الشوكة ، قالوا قولة من ربته المحن ، فصفّت معدنه ، وهزته ريح الشدائد ، فتساقط هشيمه ، وبقى صالحه ، قالوا قولتهم الكاشفة عن معدنهم المصفى ، وإيمانهم العميق ، الذى أشربته قلوبهم ، وعن حبهم المفدّى ، قالوا : امض لما أمرك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، لكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون ، مادامت منّا عين تطرف . فوالله ، الذى بعثك بالحق نبياً لو خضت بحراً لخضناه معك ، ولو علوت جبلاً لعلوناه معك ، نقاتل عن يمينك وعن يسارك ، ومن بين يديك ومن خلفك !!

لقد كانت مدة الثلاثة عشر عاماً مدرسة جادة رباهم فيها العليم الخبير :

رباهم علـى الرعايـة :

رعاية العقـل بالتفكـر

ورعايـة النفس بالعلـم

ورعايـة العلم بالعمـل

ورعاية العمل بالإخلاص

وعاية الإخلاص بالمداومة عليه .

ثم امتحان ذلك كله على حماقة الجهل ، وبطش الطغيان .

هكذا كانت تلك السنوات ، تربية للرعيل الأول ، وقدوة لمن جاء بعدهم ، ممن شاء أن يسلك طريقهم ، ويقفوا أثرهم ، ويهتدى بهديهم ؛ لينشأ المسلم : غناه في قلبه ، وقوته فى إيمانه ، ومكانته من الناس مكانة المعطى نِحلة ، ولا يمنن يستكثر ، ومكانه الصدر أو القبر ، واختياره بين احدى الحسنيين : النصر ، أو الشهادة

فإما حياة مثلما تشتهي العلى

وإما ردى يشفى من الداء وفده

* * *

طلب الأمن والأمان[1]

٣ ـ كان لهذه التربية ، ولهذه الرعاية أثرها فى وضوح هدف المسلمين ، بعد هجرتهم ، ونجاتهم ، بتلك الهجرة ، من الفتنة ، والظلم ، فى مكة ، ووجدانهم مراغماً وسعة فى رحب المدينة .

كان من أغراض الرسول ، عليه السلام ، بعد الهجرة : تحقيق الأمن للمسلمين ، والأمان لكل ذى عقيدة ، وللناس أجمعين ، حتى لأولئك الذين أخرجوهم من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله . ولتحقيق هذا الأمن والأمان :

أ ـ آخى بين المهاجرين والأنصار .

ب ـ وعقد المعاهدة مع طوائف يهود المدينة ، على تحقيق الأمن الدينى ، فلكل عقيدته ، والأمن الإجتماعي ، فكل قوم كفلاء بأصحاب العوز منهم والأمن السياسي ، فكلهم ملزمون بالدفاع عن المدينة ، بقيادة محمد ﷺ وهو المرجع عند الاختلاف ، أو التنازع .

جـ ـ وعاهد القبائل حول المدينة ؛ ليسلم من غارتهم ، ومن مساندتهم للمغير . فعل ذلك لعل قريشاً تقلع عن عتوّها فى تعقب المسلمين ، ولعلها تفرج عن المستضعفين لديها ﴿ **الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها** ﴾ ولعل قريشاً ترجع عن ضلالتها وجاهليتها ، فتترك كلمة الحق تصل إلى الآذان ، ودفء النور الإلهى

(١) الأمن مصدر (أمن) اللازم ، والأمان مصدر (أمنه) المتعدى .

يجلو القلوب ، وبرهان القرآن يقوم العقول ..

٤ ـ ولكن قريشاً أبت إلا أن تلجّ فى العتو والنفور . وشتان ما بين مراد الرسول وما تبغى قريش ! شتان مابين من بعثه ربه : يتلو آياته ؛ ليزكى النفوس ، ويعلم الكتاب والحكمة ـ وبين ما كانت عليه قريش ، ومجاهدتها فى سبيل الإبقاء عليه .

لقد كشف عن قيمة كل من المرادين ، وحقيقتهما ، وبعد ما بينهما كلمة قالـها أبو جهـل ، قائداً لقريـش ، وكلمة قالها محمد قائداً للمسلمين :

قال أبو جهل ـ وقد دعاه قومه إلى الرجوع وقد نجت عيرهم ، فأبى مستكبراً ، وقال : لا نرجع حتى ننحر ، ونأكل ، ونشرب الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب ، فلا يزالون يهابوننا !!

أما محمد فقد كان فى واد آخر ، ودنيا مغايرة ، وأغراض أجل وأسمى ، وأهداف إنسانية أبقى على الدهر ، وأنقى من هذا الدنس ، وأنفى لهذا الخبث ، وأتقى لله فاطر الكون والإنسان .. قال : اللهم إن هذه قريش ، قد جاءت بخيلها وخيلائها تكذب رسولك ، وتحادّك ! اللهم نصرك الذى وعدت ، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد !

وما زال قائماً يصلى ليلته تلك ، والمسلمون نيام ، وما زال يدعو بدعائه ذاك ، رافعاً يديه حتى سقط رداؤه ، ويشفق عليه صديقه الصديق ، فيقول له : بعض مناشدتك ربك ؛ إن الله منجز لك ما

وعدك . فيا بعد ما بين الرجلين ، ويابعد مابين الغرضين !

وتلك حال الحق والباطل ، ودأب الإنسان فى علوه وتسفله : فريق همه نفسه ، أهواؤه ، ورغائبه ، طعامه وشرابه ، لذائذه وشهواته ، علوه وفساده ، منصبه ورياسته .. وفريق محياه ومماته لله ؛ ليتم للكون وحدته ، ويحقق للإنسان وظيفته ، يعرف نفسه ، فيعرف ربه .

ولا يزال الفريقان على جهاد فى سبيل أغراضهما ما بقى على الأرض إنسان ، وما زالت سنة الله جارية عليهما ﴿ **فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض** ﴾ لكن بجهد المؤمنين ، وجهاد أتباع النبيين ﴿ **ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم** ﴾ .

ومن أراد أن يتحقق حال الفريقين ، ويستظهر كلا الغرضين فليحفظ تلك الكلمتين ، الخالدتين خلود الحق والباطل ، كلمة محمد وكلمة أبى جهل ، لسوف يظل أبو جهل رمزاً لكل المبطلين ، ولسوف يظل محمد علماً على المحقين ، إلى يوم الدين !

مقامان

٥ ـ « بعض مناشدتك ربك ؛ إن الله منجز لك ما وعدك »

كان الصديق ـ كالعهد به ـ مصدقاً . وكان ـ فى هذا المقام الحرج فى **مقام الرجاء** . وهكذا كان أبداً : صدق وتصديق للرسول ،

ورجاء غير معلول فى الله . وكذلك كان يوم خلف الرسولَ على هذا الحمل الثقيل ، والعبء الجليل ، فارتدت الجزيرة كلها إلا قليلاً ، حتي وهن أولو العزم من الرجال . إلا الصديق ، فقد استعلت صفتاه : التصديق بوعد الله لدينه : ﴿ **ليظهره على الدين كله** ﴾ والرجاء « لأقاتلنهم ولو خرج إليهم أبو بكر وحده » .

وفي هذا الموطن الذى كان فيه أبو بكر فى (**مقام الرجاء**) كان ﷺ فى (**مقام الرجاء والخوف**) . كان كذلك من شدة تقديره للموقف ، وقوة إحساسه بخطر النتائج ، ومقام الرجاء والخوف مقام كمال الإيمان ﴿ **أم من هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه** ﴾ .

جمع الرسول ، عليه السلام ، بين المقامين فى هذا الموقف ذى الشأن الفذ الخطير : فبينما يبشر المؤمنين بالنصر ، ويحدد لهم مصارع أئمة الكفر ، ويضع يده على الأرض وهو يقول : هذا مصرع فلان ، وهذتا مصرع فلان وعدد لهم رءوس الكافرين ، فما عدا أحد منهم موضعه الذى حدده رسول الله ﷺ ــ بينا ذلك ، وبكل هذا اليقين ، كان فى مقام الخوف والإشفاق على الدعوة ، وعلى مصير العالم .

نعم وعلى مصير العالم « فإن تهلك عصابة الإيمان هذه فلن يعبد الله وحده بعدها » وسوف تعلو كلمة الشرك ، وتطير فى الآفاق سماتها ، ويمكّن لأغراضها ، ويتدلى الإنسان إلى شهواته ، وينحصر على حيوانيته « ينحر ، ويأكل ، ويشرب الخمر ، وتغنيه القيان .. » وتفسد

علاقته بالناس : « فتهابه الضعفاء » وتفسد علاقته بالله : فينزلف إليه بالأوثان ، وتظل الأوثان مودة مابين الناس فى الحياة الدنيا ..

وهكذا كان ﷺ يقظاً لغاية أعدائه ، بصيراً بغرض دعوته ، شفيقاً على أحدهما من الآخر . وتلك سمة القائد الحق ، الجدير بالقيادة والريادة !

بدر درب الإيمان

٦ ــ وكذلك كشف الرسول ﷺ بكلماته ، فى موقفه ذاك عن مكانة غزوة بدر : إذ كانت بدر هى الدرب الذى سلكه الإيمان ، ودرج فيه التوحيد يسعى إلى رحب الدنيا ، فيخرج الناس من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد ، ومن فساد الشعور إلى طهارة الوجدان ، ومن حيرة الفكر ووحشته إلى علم اليقين !

كانت بدر المعول الذى حطم الأصنام الإنسانية ، التى قادتها الكبرياء الكاذبة ، والجحود الناكر ، والحسد الباغى إلى أن « تجاهد » فى إطفاء نور الله ! فقضت بدر على هذه العلل ، وشفت الإنسانية من أمراضها وأعراضها ..

وبذلك دخل المسلمون فى طور جديد ، لم يسبقوا إليه ، استطاعوا به أن يضعوا ــ بقيادة الرسول ، ووحى السماء ــ حجر الأساس لحضارة إنسانية من نوع فريد فى تاريخ الأديان . طور أذن فيه مؤذن الإيمان : أن

العبادة لله وحده ، والنظام لشريعته ، والإخاء لبنى الإنسان ، فخير الإسلام « أن تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » .

هكذا نشر الإسلام السلام العام ، وجعل تحية السلام تحية المسلم ، ينشرها على من عرف ومن لم يعرف ؛ أما من عرف فأمره بين ، وأما من لم يعرف ، فإن كان مسلماً فهو فى أخوة الإيمان ، وإن كان غير ذلك فهو فى أخوة الإنسان .

هذا هو أدب الإسلام ، تقرر فيه بالقول والعمل !

وما كان أخفى هذه الأغراض السامية على فكر الكفر . وما كان أبعدها عن أفق الكافرين ، وما أشد الخلف بينها وبين فهمهم للعلاقة بين الناس : أبو جهل يقول : « لا نبرح حتى ننحر .. وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا » فأين هذا مما نشر محمد من الإخاء بين بنى الإنسان ، وأوجب السلام علي من عرفت ومن لم تعرف .

واستفتح أبو جهل ، إبان المعركة فقال : « اللهم أقطعنا للرحم ، وآتانا بما لا يُعرف فأَحِنْه(١) الغداة » .

وهى كلمة كاشفة عن منهج التفكير الجاهلى ، فى كل زمان ، يمثله فى كلمته فرعون هذه الأمة ، كما مثله الفرعون عندما تعجب من دعوة موسى عليه السلام ، إلى الله ، فقال فرعون يخاطب الملأ من

---

(١) من الحين : وهو الأجل والموت .

قومه : (ما علمت لكم من إله غيرى) !

كانت الاستقامة على صراط الله الواحد ــ عند رأس الجهل ــ قطيعة للرحم ، ودعوة إلى مالا يعرف ! كأن كل مالا يعرف منكر باطل !

وهذا هو منطق المعاندين فى كل حين . الدعوة إلى الحق للخروج من الباطل قطع للرحم ، وتفريق للجماعة ، وتمزيق لوحدة الأمة ، وإنكار لما تعارفت عليه . كأن الاتفاق على الباطل يجعله حقاً ، وكأن معرفة المعاندين قد أحاطت بكل شيء علماً ، فما لا تعرفه باطل مرفوض .

والتقت الطائفتان

٧ ــ لقد استفتحت الجاهلية فجاءها الفتح ، وقذف الله بالحق على الباطل فدمغه ، وسارت الإنسانية إلى معلمها الفطرى المنشود ، بفضل الله وسنته العامة فى الناس ، وبنعمته ، فى بدر على التخصيص .

فى بدر التقى الغرضان والتحم القصدان : قصد الجاهلية ، فى الإبقاء على الوثنية التى توبق الروح ، والمادية التى ترهق الجسد ، وتحصر الإنسان فى طبيعته الطينية ، ومطالبه الحسية . وهدف الإسلام ، فى الاستعلاء بالإنسان ، فى تفكيره وضميره وسلوكه جميعاً ، وإبعاد مدى حياته عن أن يحصر فى هذه الدنيا ، وأن تكون غايته ومبلغه من العلم ، إلى رحب الحياة الآخرة ، حيث البقاء ، الذى لا يلحقه فناء ، والذى

لأجله خلق الله الإنسان .

لقد قررت بدر أن الزمان ، وعمر الإنسان أعز ، وأغلى من أن يبذل فى الأكل والشراب ، والتلذذ ، والاستعلاء على بنى الإنسان .

لقد التقت الفئتان على أغراضهما ، فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة ، فكان ما قال الله (إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح)

لقد كانت بدر ، وما زالت ، ولسوف تزال ـ مَعْلماً معلّماً ـ سنة الله فى الكون والناس : الصراع بين الباطل الجاهلى ، والحمق الأرضى ، والغرور الإنسانى ، وبين الحق الإلهى ، والهدى السماوى ، والتوكل الإيمانى .. فكانت العاقبة للقيم الصحيحة ، وكانت العاقبة للمتقين .

كانت بدر واقعة من وقائع سنة الله فى امتحان الأخيار بالأشرار ، وابتلاء الأبرار بالفجار . فكشفت عن صفتين من صفات الله الفعلية : العدل ، والفضل ، فكان الله ذا عدل مع الكافرين : هزمهم بيد الذين استضعفوهم ، وقتلهم بسيوف من عذبوهم . هذا بلال ، يرى أمية بن خلف ، وقد كان أمية فعل ببلال الأفاعيل ، فيقول بلال : أمية بن خلف ! رأس الكفر ، لا نجوت إن نجا . وكان الله ذا فضل على المؤمنين : أمدهم بملائكته ، وأيدهم بنصره ، ومنحهم أموال الكافرين : غنيمة وفداء .

السبب والقدر

٨ ـ بدر كلها عبر ، وتقريرات ، وسنن ، ومعالم ، ودروس . من تلك الدروس ـ غير ما سلف ـ الحقائق الكاشفة عن علاقة الإيمان

بالأسباب المادية ، كما يقررها الإسلام ، وكما تثبتها حقائقه ، من وقائع بدر :

هذا هو الرسول ﷺ فى قوة إيمانه ، وعمق يقينه بقدر الله ، ورسوخ عقيدته بقضاء الله ــ ها هو مع كل ذلك ــ يجمع بين الإيمان بالله والأخذ بالأسباب :

هذا هو قائم يصلى ، ويدعو ، ليلة بدر كلَّها !

وها هو ذا قائم يدعو ، ويلح فى الدعاء إبان المعركة ، حتى يشفق عليه صديقه الصديق .

ها هو ذا يعين لأصحابه وجنده مصارع الأعداء المتجبرين .

هاهو ذا يخبر جنده أن الله وعده إحدى الطائفتين ، وقد نجت العير ، فصدق الوعد على النفير . والله لا يخلف الميعاد .

هذا هو ــ مع كل ذلك الإيمان واليقين ــ :

يُعِدّ الجند ، ويحصى عددهم ، ويفتش عن سلاحهم ، ويَعُد ركابهم ، ويرفع معنوياتهم : « والذى نفس محمد بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل ، فيقتل صابراً محتسباً ، مقبلاً غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة ! ويفعل هذا التحريض فعله ، فيقول عمير بن الحُمَام ، وبيده تمرات يأكلهن : بخ بخ ، ما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء ، ثم قذف التمرات من يده ، وأخذ سيفه ، فقاتل القوم حتى قتل . ومع ذلك يبنى الحوض ، ويتخذ موقعاً يغيظ الأعداء ، ويمنع عنهم الماء ، ويبنى

العريش ، ويقيم عليه حرساً شديداً ــ ويسوى بين الصفوف ، بقدح فى يده ، ويمرّ برجل يسمى سَواد بن غزيّة ، وهو خارج الصف فيطعنه ﷺ فى بطنه بالقدح ، ويقول له : استو يا سواد . فقال سواد : يارسول الله ، أوجعتنى وقد بعثك الله بالحق والعدل ، فأَقِدْنى . فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه وقال : استقد ! فاعتنقه سواد ، وقبل بطنه الشريف ! فقال : ما حملك على هذا يا سواد ؟ فقال : يا رسول الله ، حضر ما ترى ، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك . فدعا له رسول الله بخير .

ومن أخذه ﷺ بالأسباب أن رمى بالحصباء ، فى وجوه الأعداء ؛ فلم تترك رجلاً منهم إلا ملأت عينه ، وشغلوا بالتراب فى أعينهم ، وشغل المسلمون بقتلهم ، فأنزل الله على رسوله فى شأن هذه الرمية (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) .

وقد ظن قوم ــ وبلوت ذلك بنفسى ــ أن الآية دلت على نفي الفعل عن رسول الله ﷺ وإثباته لله وحده ــ فتكون الآية إهداراً لفعل الإنسان وتقريراً لفعل الله .

وليس كذلك ! إذ الآية فيها : نفي ، وإثبات ، تواردا على أمرين مختلفين : الرمى ، بمعنى : الحذف ، والقذف . والرمى ، بمعنى : الإيصال : إيصال المرمى إلى هدفه .

والذي كان : أن الرسول ﷺ حذف ، وأن الله أوصل الحصى والتراب إلى عينى كل رجل من الكافرين . أخذ الرسول بالسبب ،

فقذف بالحصى . وحقق الله قدره ، فأوصل الحصى إلى كل عين . فأثبت الله لرسوله ابتداء الرمى ، ونفى عنه الإيصال ، الذي لا يحققه مجرد الرمى .

فذكر السبب ، وأضافه إلى الرسول ﴿ **إذ رميت** ﴾ . **وذكر القدر** ، وأضافه إلى نفسه ﴿ **ولكن الله رمى** ﴾ . **والأول يثبت العدل وينفى الجبر . والثانى يثبت الفضل ، وينفى القول بنفى القدر !**

وشبيه بفعل الرسول فى الرمى ، وفعل الله فى الإيصال ــ قصة أسر العباس بن عبد المطلب ، عم النبى ﷺ : كان العباس جسيماً طوالاً ، يفرع الرجال طولاً . والذى أسره : أبو اليسر ، كعب بن عمرو ، وكان كعب ضئيلاً ، صغير الجثة . فقيل للعباس : لو أخذته بكفك لوَسِعَتْه ! فقال العباس : ماهو أن لقيته فظهر فى عينى مثل جبل الخَدَمة بمكة . وسأل الرسول ﷺ كعبا : كيف أسرت العباس ؟ فقال العباس : إن هذا ما أسرنى ! لقد أسرنى رجل أبلج ، من أحسن الناس وجهاً ، على فرس أبلق . ما أراه فى القوم . فقال كعب : أنا ، والله أسرته يا رسول الله . فقال ﷺ : اسكت ، فقد أيدك الله بملك كريم !

٩ ــ بهذا التقرير العملى من الله ورسوله يتبين معنى (التوكل) الذى يدعو إليه كتاب الله . وتظهر حقيقته ، وهى : وجوب استعمال الأسباب ، التى نصبها الله لمسبباتها قدراً وشرعاً . فإن رسول الله ﷺ وأصحابه أكمل الخلق إيماناً وتوكلاً على الله ــ كانوا يلقون عدوهم متحصنين بحصنين : الإيمان بالله . واليقين في قضائه وقدره ، ثم بأنواع

السلاح وما استطاعوا من قوة . ويوم أحد ظاهر ﷺ بين درعين ، ولبس المغفر . ودخل مكة والبيضة على رأسه .

وذكر أبو القاسم ، ابن عساكر ، في تاريخه الكبير : أن رسول الله ﷺ كان ، بعد أن أهدت إليه اليهودية الشاة المسمومة ، لا يأكل طعاماً قُدّم له ، حتى يأكل منه من قدّمه !

كل هذا مع قول الله له ﴿ **والله يعصمك من الناس** ﴾ فضمان الله له العصمة قدر ، لا ينافي أخذه بأسبابها . كما أن إخباره إياه بإظهار دينه على الدين كله لا يناقض أمره له بالقتال ، وبإعداد القوة والعدة ، والأخذ بالجد ، والحذر ﴿ **يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً** ﴾ .

وهذا موطن يغلط فيه كثير من الناس ، ولا سيما (الطيبون) الذين يحسبون لبّ الإسلام في ترك الأسباب ، ويحسبون الأخذ بها قدحاً في الإيمان ، فيفصلون بين السبب والقدر .

والسبب والقدر كلاهما قد قدّر الله ، فهذه الأسباب المادية والمعنوية قد جعلها الله مفضية إلى مسبباتها .

ومن تقريرات الرسول ﷺ لهذه الحقيقة الإسلامية ، وقد حاوره من اشتبه عليه حقيقة العلاقة بين السبب والقدر ـ أنه ، عليه السلام ، لما قام مقامه ـ يوم بدر ـ يدعو الله ، ويستنجزه وعده ، قال له عبد الله بن رواحة : يا رسول الله ، إني أشير عليك ، إن الله أجل وأعظم من أن

يُنْشَد(١) وعده ! فقال ﷺ : ياابن رواحة ، ألا أنشد الله وعده ؟!! إن الله لا يخلف الميعاد .

فما أجدر المسلمين اليوم ، وفى كل يوم ، أن يتدبروا هديه ﷺ فيأخذوا بكل الأسباب المادية والمعنوية المفضية بهم إلى القوة ، والعزة .

أنى للمسلمين أن يبلغوا دعوتهم ، ويملكوا عزتهم ، وسلاحهم ليس من صنعهم ، وطعامهم ليس من زرعهم ، وسياستهم ليست من كلمتهم ، وأمرهم يقضى فيه غيرهم ، بل عدوهم ؟! .

فهل توجد أمة حرة بهذه الحال ، بله أمة ذات رسالة ؟

لو آمنت أمة المسلمين اليوم بأنهم أمة لها رسالة لتغير حالهم ، وحققوا واجب الإسلام فى القدر والسبب ، ولكن نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، ولم ينصروه فخذلهم ، ووالوا عدوه فولاهم ماتولوا ، فظلموا أنفسهم ، وظلموا بظلمها الإسلام !

هذه قيمة ، ومبدأ ، أرسته غزوة بدر يستحق أن يستقل بعنوانه .

مبادىء وقيم أرستها بدر

١٠ ــ وهناك قيم أخرى ، ومبادىء أرستها غزوة بدر ، وأسستها وقائعها تستحق أن تدرس ، وأن توعى ، وأن تكون منهجاً عملياً لحياة المسلمين ، غير مبدأ الأخذ بالسبب ، الذى سلف شرحه :

---

(١) نشد : طلب ، أنشط : عرّف .

مع قوة المسلمين ، وإعدادهم القوة الرادعة ؛ لتحقق (السلام المسلح) يجب عليهم عرض السلام على مخالفيهم ؛ لتجنب الحرب ، وتقرير مبدأ آخر ، من خلال مبدأ (السلام) وهو أن تكون (الحرب ضرورة) تقدر بقدرها . ومن ثمّ كانت لهذه الضرورة آدابها الواجبة ، التي قررها الإسلام ،حتى لا تخرج عن حد الضرورة إلى الإفراط ، الذى عرفته ، وتعرفه حروب البشر أجمعين .

لما أجمعت قريش أمرها ، وأتت صفاً لحرب الرسول ، بحمية أبي جهل ، بعث إليه ﷺ ، عمر بن الخطاب يعرض عليهم (السلام) ، فقال لهم : يقول لكم رسول الله ﷺ ، ارجعوا ؛ فإنه أن يلى هذا الأمر منى غيركم أحب إلى من أن تلوه منى . فقال حكيم بن حزام : قد عرض نصفا ، فاقبلوه ، فوالله لا تنصرون عليه بعد ما عرض النَّصَف . فقال أبو جهل : والله لا نرجع بعد ما أمكننا الله منه !

ولا يخطرن على البال أن السلام ، الذى عرضه الرسول ، والنصف الذى تبينه عاقل من قريش ـ كان عن خوف ورهب ويأس .. إنما هى خطة المسلمين : يعرضون (السلام) عن قوة ، كما سيأتينا ذلك ، عند بيان معانى سورة بدر المباشرة من آياتها . لقد كان الرسول وهو يعرض (السلام) علي يقين من أن (ذات الشوكة) له ، كما كان على ثقة من جنده الذين (رضوا أن يخوضوا البحر معه) .

ولم يكن الرسول ، عليه الصلاة والسلام في مرية من قولهم ؛ فقد

كانت عزيمتهم يدركها من يراهم بادى الرؤية ، ولقد آنسها ربيئة قريش : عمير بن وهب ، عندما بعثته ، وقالت له : احزر لنا أصحاب محمد . فاستجال بفرسه حول عسكر النبى ﷺ ، ثم رجع إلى قريش فقال : ثلثمائة رجل ، يزيدون قليلاً ، أو ينقصون قليلاً .. ولكنى قد رأيت يامعشر قريش ، البلايا تحمل المنايا ، ألا ترونهم خرساً لا يتكلمون ، يتلمظون تلمّظ الأفاعى ، لا يريدون أن ينقلبوا إلى أهليهم ، زرق العيون ، كأنهم الحصى تحت الحَجَف(١). قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم . والله ما أرى أن نقتل منهم رجلاً حتى يقتل رجلاً منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادكم فما خير العيش بعد ذلك ؟! فرَوّا رأيكم !

فإذا كان طليعة قريش قد أدرك عزم هذا الجيش الصغير على هذا النحو الذى وصف وقد رآه مرتين اثنتين ، فما بالك بمن ربّاهم ، وتعهدهم ، وصنعهم على عينه : محمد ﷺ ؟!

إذاً ، لم يكن عن خوف عرض النبى ﷺ ، ما عرض من السلام . بل كان عرض المؤثر للسلم ، الجانح للأمن ، الراغب فى الأمان ، على إيمانه بوعد ربه فى النصر ومعرفة بنفسه ، وثقة من جنده . وتلك كانت خطته ، وتعليمه أتباعه : ففى غزوة الحديبية ـ وقد بايعه أصحابه على الموت ، قال عن قريش ، وقد أزمعت على صده عن الغاية التى خرج إليها : زيارة البيت العتيق ، وقدموا خالد بن الوليد ، على خيلهم لهذا الغرض ، فسلك الرسول طريقاً غير طريق فرسان قريش ؛ ليتجنب

(١) جمع حجفة وهى الدرع من الجلد .

الصدام معهم ـ ثم قال : لا تدعونى قريش ، اليوم ، إلى خطة ، يسألوننى فيها صلة الرحم ، إلا أعطينهم إياها !

إن عهدنا بالزعماء والقادة أنهم إذا آنسوا من أنفسهم القوة ، وأحسوا من أعوانهم العزيمة ، والقدرة على العدوان ، لم يتمهلوا عن البطش ، والاستيلاء ، والعدوان .... ولم يمهلوا خصمهم ليدرأ عن نفسه عدوانهم . وعندما لا يجدون سبباً مقبولاً ـ من حيث الشكل ـ تعللوا بأوهن الأسباب ، وحرفوا الكلم عن مواضعه ، وفسّروا الوقائع بهواهم .. لا يرعون فى ذلك إلاً ولا ذمة ، ولا تحكمهم قيمة مستقيمة ، ولا مبدأ مرعىّ إلا قيم الاستعلاء ، والاستكبار فى الأرض . وقديم التاريخ وحديثه شهيد على صدق ذلك ، قائم بهذه الأمثلة من الطغاة والمتجبرين .

وهذه إسرائيل ، وسنادها الظلوم ، شاهد قائم على ذاك الطغيان وبيان بيّن على عدوان القوة على الحق ، والعدل ، والرحمة ، وعلى كل جليل وجلل ، من القيم ، التى يكون بها الإنسان إنساناً . فأمريكا ، وربيبتها المدللة ، تسمى ثأر الفلسطينيين لوطنهم ومقدساتهم ـ على ضعفه وعجزه ـ عدوانا ، وإرهاباً . أما ما تفعله إسرائيل فدفاع عن النفس ، وأما ما تفعله أمريكا ـ كعدوانها على ليبيا مرتين ـ فهو حماية للإنسانية!!

ولو كان للعرب قوتهم لألقت إليهم السّلم ، وأتوا بابهم خاضعين .

إن أعداء المسلمين يكرهون لهم القوة ، ويكرهون لهم أن يعودوا

إلى دينهم ، فها هم يكرهون لهم – اليوم – القوة النووية ، وهم يملكونها ! ويكرهون لهم دينهم ؛ ولذلك عارضت أمريكا المجاهدين الأفغان فى رغبتهم فى إقامة حكومة إسلامية . وياعجباً ! اتفقت روسيا وأمريكا على هذا الغرض ! مع كره أمريكا أن تصل روسيا إلى المياه الدافئة ، كما يقولون ، وكرهها لمذهبها الاقتصادى من قبل ذلك . ٠

ومع ذلك ، منا من يوالى هؤلاء ، ومن يوالى أولئك . ومنا من يؤمن بنظام هؤلاء ويعمل له ، ومن يؤمن بنظام أولئك ، ويعمل له !! فمتى يعقل العرب ؟ ومتى يتذكر المسلمون ؟!!(١)

هذا عهدنا فى زعماء الأمم ، وأصحاب القوة . لكن محمداً ﷺ سيظل مثلاً فريداً ، وقدوة حسنة – لمن يريد – فى إيثار السلم ، والجنوح إليها ، وحفظ الرحم ، والإبقاء عليها ، ورعاية الإنسانية ، والأخذ بيدها إلى الأمن والأمان والإيمان .. وكذلك كانت أمته من بعده . لم يدخلوا حرباً إلا بعد أن يعرضوا على محاربيهم : أخوة الإيمان فيصيروا جميعاً مسلمين . فإن أبوا فأخوة الإنسانية ، التى تدع كل واحد وعقيدته ، مع المشاركة فى إقرار النظام والأمان ، وحماية الأوطان .

بهذه المبادىء القيمة ، والأخلاق الكريمة ، والقيم السماوية ، التى لا يمنّ بها المسلمون ؛ بل يرونها واجبهم المفروض ، وقدرهم المحتوم ، ورسالتهم إلى العالمين – بهذه المبادىء وبهذه الأخلاق انتصر محمد ﷺ على العرب ، وبها انتصر العرب على الدنيا .

---

(١) صدر للمؤلف كتاب : محنة العرب فى الخليج . الأزمة والعلاج بميزان الإسلام .

لا أقول : انتصروا بهذه المبادىء والخلق مع الإيمان ؛ لأن هذه القيم ، وهذه الأخلاق كانت من حقائقٍ إيمانهم الاعتقادية ، ووقائع سلوكهم العملية : لما أسر المشركون خبيب بن عدى غدراً وخيساً ، وحبسوه عند ماويّة ، مولاة ابن أبى إهاب ، إلى أن يقتلوه ، فلما حضره القتل قال لها : ابعثى إلى بموسى أتطهر به للقتل ، فبعثت به مع ابنها . ثم راجعت نفسها ، وقالت : ماذا صنعت ؟! أصاب الرجل ثأره بقتل هذا الغلام ، فيكون رجلاً برجل . فدخلت عليه فزعة ، وعرف خبيب خاطرها فى فزعها ، فقال لها : خفت عليه ، ما كنت لأفعل !!

نعم ما كان ليفعل ؛ لأن حقائق الإيمان الاعتقادية هى حقائق الإيمان العملية ، لم يعرفوا (الإيمان النظرى) ولم يفرقوا بين الإيمان اعتقاداً ، والإيمان عملاً ؛ لذلك لا أقول : انتصروا بالخلق مع الإيمان ؛ لامتزاج الاعتقاد بالعمل ، فإن قلتَ : انتصروا بالإيمان ، فقد جمعت وصدقت . وإن قلت : انتصروا بالأخلاق ، فقد صدقت وجمعت .

وتلك حقيقة ما أشد حاجة المسلمين ـ اليوم ـ إلى أن يعوها ، وأن يقدروها قدرها . لقد أتى عليهم حين من الدهر غرقوا ، إلى الأذقان ، فى بحوثهم وجدلهم حول حقيقة الإيمان ، حتى زين بعض قولهم ترك أعمال الإيمان ، وصار إيمان الأمة ، فى عصور ذلك الجدل العقيم إيماناً عقيماً ، وعانت الأمة من (انفصام الشخصية) : عقيدتها شىء ، وثقافتها شىء مغاير ، وسلوكها أدنى من هذا ومن ذاك .

ولما كان (هذا الانفصام) بين الإيمان والعمل يجد سنده من

الباحثين قديماً وحديثاً فسوف أخصه بحديث إن شاء الله .

حق الأسير والقتيل

١١ ـ قبل أن تعرف الدنيا حقوقاً لقتلى الأعداء وأسراهم عرف الإسلام هذه الحقوق ، قررها قولاً مقدساً ، وأثبتها المسلمون عملاً ، وكانت التقريرات العملية من الرسول وأصحابه مصدراً من مصادر تقنين الفقه عند أئمة التشريع منذ أخذ الإمام أبو حنيفة فى هذا التقنين . ومازالت كذلك إلى اليوم :

كان سهيل بن عمرو ـ خطيب المشركين ، والفاعل بلسانه فوق ما تفعله سيوف الكثيرين ـ أسيراً يوم بدر . فقال عمر للرسول : دعنى أنزع ثنيتى سهيل بن عمرو ؛ فلا يقم عليك خطيباً فى موطن أبداً . فقال الرسول ﷺ : « لا أمثل به ؛ فيمثل الله بى ، وإن كنت نبياً !! وعسى أن يقوم مقاماً لا تذمه » وصدق رجاء الرسول : فأسلم سهيل ، ولما كان عهد الصديق ، وهم أهل مكة بالردة ، حتى خافهم أمير مكة : عتاب بن أسيد ، وتوارى منهم ـ خطبهم سهيل ، وكان مما قال : أيها الناس ، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت . ألم تعلموا أن الله تعالى قال : ﴿ **إنك ميت وإنهم ميتون** ﴾ وقال ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل** ﴾ . والله إنى أعلم أن هذا (الإسلام) سيمتد امتداد الشمس فى طلوعها وغروبها ، فلا يغرنكم هذا من أنفسكم (يعنى : أبا سفيان) فإنه يعلم من

هذا الأمر ما أعلم .. توكلوا على ربكم ؛ فإن دين الله قائم ، وكلمته تامة .. يا أهل مكة لقد كنتم آخر من أسلم فلا تكونوا أول من ارتدّ .

وصدقت كلمة الرسول عليه الصلاة والسلام ، فى سهيل ، ونفع الله به الإسلام ، وانتفع سهيل بعقله وخلقه . وهكذا يكون صاحب الفكر والخلق : أول من ينتفع به ، وينفع الله به !

ومن تلك المبادىء التى أرستها بدر : إكرام جثث الموتى ، ولو كانوا كافرين : فقد أمر ﷺ ، أن توضع جثث المشركين فى القليب . ولولا خوف المشقة على أصحابه لأمر بحفر لحد لكل منهم .

وفى سنن الدار قطنى : كان من سنته ﷺ فى مغازيه ، إذا مرّ بجيفة إنسان أمر بدفنه ، لا يسأل عنه مؤمناً كان أم كافراً .

ودونك هذا المثل الشاهد لامتزاج الإيمان بالعمل ، والمقرر لمبدأ من مبادئ الحرب فى الإسلام ، والداعى إلى الرحمة ، حتى مع الأعداء : قال أبو عزة بن عمير ــ وكان أسيراً يوم بدر ــ : كنت فى الأسر عند جماعة من الأنصار ، حين أقبلوا بى من بدر ، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصونى بالخبز ، وأكلوا التمر ؛ لوصية رسول الله إياهم بإكرام الأسرى ، ما تقع فى يد رجل منهم كسرة من الخبز إلا نفحنى بها ، فأستحى فأردها على أحدهم ، فيردها علىّ ، ما يمسها !![1]

يا موت زُرْ ؛ إن الحياة ذميمة !

---

(١) كان خبز القمح عندهم أفضل من التمر .

إننى لأشهق شهقة تكاد تقطع النفَس ، وتأتى على النفْس ، حسرة وأسى على واقع المسلمين ، وبُعد ما بينهم وبين خلق دينهم !! أين هذا الخلق ، والسلوك العملى ، مع المشركين ، الذين لو أمكنتهم الفرصة لما أبقوا الرسول ، ومن اتبعه أحياء . ثم الرسول ــ مع ذلك ــ يأمر بإكرام أسراهم ، كمبدأ ، وخلق عام ، لا يخص هؤلاء الأعداء وحدهم ، بل ليكون تشريعاً يقتفى . وهذا فعل الصحابة لتنفيذ الأمر ، ولو فعلوا دون ما فعلوا لكانوا ممتثلين .

أين هذا التشريع ، والتنفيذ مما يفعله بعض (المسلمين) بخصومهم السياسيين إذا ظفروا بهم ، فيما يسمى (المعتقلات) : لقد أطعموهم (الطين) وسقوهم (البول) ..

لا ، لا . لن أستمر فى السرد . وحسبك كتب نشرت فى ذلك . وحسبك أن تعلم أن هؤلاء المعتقلين كانوا يستخفون بصلاتهم وقرآنهم ، حتى لا يزادون عذاباً فوق عذابهم ، بل حتى لا يسخر بدينهم ويستهزأ بالقرأن !

وحسبك أن تعلم أن لو احتشدت الشياطين ، لمعاملة هؤلاء المعتقلين ، لما بلغوا معشار مافعل هولاء (المتحضرون المؤمنون) .

ثم هم ــ فى معاملتهم لغير المسلمين ــ يخشون اللائمة ، ويرعون القانون الدولى ، ويُشهدون علي رعايتهم إياه ! أما قانون الإسلام ، بل قانون الإنسانية فما أضيعه ، وما أشد يتمه ، بأرض ضيعت فيها اليتامى !

ليت شعرى أين مصير هؤلاء ؟ لقد أخبرنا الرسول ﷺ أن امرأة دخلت النار فى (هرة) حبستها ، لا هى أطعمتها وسقتها ، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض . فأين يكون مصير من أذاق (الإنسان) صنوف العذاب ، وسلط عليه وحشىّ الكلاب ، تأكل من لحمه ! حتى إذا قارب الموت نصح طبيبهم بأن تكف كلابهم ، حت يمكن العود !!

ليت شعرى أين مصير هؤلاء ؟ هل : النار ، مع صاحبة الهرة ؟

بل الأسير المعيل

١٢ ـ أن يوصى الإسلام بالأسير ، ويؤثره المسلمون بالطيب من طعامهم ـ شىء سابق وعجيب ، بيد أن الأعجب منه أن يمن على الأسير ؛ لفقره وعجزه عن دفع الفداء ، فقد منّ ﷺ على نفر من الأسارى ، بغير فداء ، وأعجب من هذا الأعجب رعاية عياله ، والمنّ عليه من أجلهم . فإذا كان (مجرم حرب) ومننت عليه من أجل عياله فهى الرحمة البالغة والسمو بأخلاق الحرب إلى مستوى المثالية التى تلقى فى يد المسابقين التراب . كان أبو عزة عمرو الجمحى يؤذى الرسول والمؤمنين بمكة ، ويحرض عليهم بشعره ، فلما وقع أسيراً ، يوم بدر قال للرسول ﷺ : إنى فقير ، وذو عيال ، وحاجة قد عرفتها ، إنّ لى خمس بنات ، ليس لهن شىء ، تصدق بى عليهن . فمن عليه الرسول عليه الصلاة والسلام .

وهذا جميل فذّ فريد فى قيم الأخلاق ، حيث منّ عليه الرسول ، وهو مشرك ، محرض ، معتدٍ أثيم ، شهد مستقبله بأنه غادر ، موغل فى العدوان ، لا يقدر ذا المعروف حق قدره . لقد قابل معروف الرسول معه بالتنكر له ، إذ لما عاد إلى مكة طليقاً عاد إلى سيرته الأولى ، وزاد عليها أن يقول : خدعت محمداً !! ثم شارك المشركين يوم أحد فى الهجوم على المدينة ، بغية القضاء على النبى والمسلمين ! ولكنه وقع أسيراً ، وعاد يعتذر للرسول بمثل ما اعتذر به يوم بدر ! فقال له ﷺ : « والله لا تمسح عارضيك بمكة تقول : خدعت محمداً مرتين ، لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين !!

وإذا كانت هذه الأمثلة البالغة فى الرحمة والخلق ، والتى عادت للمسلمين فى حروبهم تشريعاً دائماً واجب التنفيذ ـ عجباً بالغاً ، فإنه من العجب المؤسف التعامى عنها ، والتعلق بظاهر أمر يخالف هذه الوقائع فى روعتها الإنسانية ، ذلك مثل لزيغ القلوب ، وانحراف الفكر عن جادة البحث العلمى يقدّمه بعض الذين كتبوا عن سيرة الرسول عليه السلام ، فيتغافلون عن هذه الروائع ويتعلقون بقتل عقبة بن أبى معيط ! والذين عموا هذا العمى من قوم ظلوا يلاحقون من سموهم (مجرمى حرب) سنين طوالاً ، ومن تمكنوا منه بعد أكثر من أربعين سنة حاكموهم وقتلوهم ! وقصة سكرتير عام الأمم المتحدة (فالدهايم) وتتبع إسرائيل له ، بعد عمله المجدد ، فى الأمم المتحدة ـ مشهور ومعلن ، وكم بذل يهود العالم من جهد حتى لا ينجح فى انتخابات رياسة دولته ، وبعد نجاحه ، تمتنع أمريكا عن السماح بدخوله إليها ! ثم يتشدّقون بالحرية ،

جزاء الإحسان

١٣ ـ إن الإنسان الذى يعرف متى يعفو ويصفح ، ومتى يعاقب ويؤاخذ هو الرجل حقاً ، وإذا كان زعيماً ، أو قائداً ، فهو الزعيم صدقاً . وهكذا كان محمد ﷺ . والرجل الذى يحفظ الجميل ، ويكافىء عليه هو الإنسان الممثل للإنسانية فى أوجها الصافى . وهكذا كان محمد عليه الصلاة والسلام .

فكان هو **الرجل** فى درجة الرجولة الكاملة ، المعبرة عن المروءة والكرم ، وكان هو **الزعيم** والقائد الرائد ، الذى نَهَج للزعامة والقيادة نَهْج الفضائل الإنسانية ، التى لا يطغيها النصر ، ولا تبطرها النعمة ، وكان هو **الإنسان** (المشخص) للإنسانية مثلها الكامل ، وصورتها الباهرة . فكان فى رجولته ، وفى زعامته ، وفى إنسانيته علي مكافأة من نبوته ، فتشاكلت صفاته السماوية وصفاته العملية الواقعية ، وتشابه رسولاً وبشراً فكان الرسول الكامل والإنسان الكامل ، فكافيك من رجل ، وكافيك من رسول !

أن تعترف بالجميل لصاحبه وهو على عقيدتك خلق حسن ، وأحسن منه أن تعترف بالمعروف من مخالفك فى العقيدة ، وأحسن من هذا الأحسن أن تعترف بالجميل لمن يخالفك فى الاعتقاد وهو على

حربك ، ويؤلب عليك ، ويكثّر عليك سواد عدوك الخصم .

ومن يطيق هذين ؟!

إن النفس البشرية مولعة بنكران الجميل ، وغمط صاحبه ، تحسب ذلك حفظاً لكبريائها ، وإبقاءً على حبها المطبوعة عليه للاستعلاء . وتحسب أن الاعتراف بالجميل لصاحبه خضوع ينقص كبرياءها ، ويتنزّل باستعلائها . لذلك كان الذى يعترف لصاحب الفضل بفضله مستعلياً على طبيعة النفس ، قاهراً لها على الحق ، آخذاً بزمامها إلى الفضل . ومن يطيق ذلك ؟ إنه محمد ﷺ ، الذى أدبه ربه ، وصنعه على عينه .

سلفت أمثلة من سموه ذاك ، الذى غدا شرعاً لأتباعه . وها هو ذا يأمر ــ قبل معركة بدر ــ أن من لقى أحداً من بنى هاشم فلا يقتله ، إن تمكن منه ، بل يأسره ؛ وذلك لسابق فضلهم حين حموه بمكة ، ولولا حمايتهم ــ بعد فضل الله ــ لقتله قومه . ولأنه ، عليه السلام ، كان يعلم أنهم أكرهوا على الخروج لملاقاته : فكانت وصيته بعدم قتلهم مكافأة لهم على سابق فضلهم ، وتقديراً لحاضر أمرهم .

ولهذا ، أيضاً ، أوصى أصحابه أن من لقى (أبا البخْتَرِىّ) بن هشام فلا يقتله ، ذلك لأنه كان من النفر الذين قاموا فى نقض الصحيفة التى تعاهدت فيها قريش ، وتعاقدت ، على مقاطعة بنى هاشم وبنى المطلب ؛ واعتقالهم فى شعب أبى طالب ، خارج مكة ، أو يسلمون محمداً

ﷺ ؛ ليقتلوه . فكان أبو البخترى من النفر الذين تعاونوا على نقض هذه الصحيفة الظالم أهلها .

وكان من هؤلاء النفر (المطعم بن عدى) ، وهو ، أيضاً الذى حمى النبى ﷺ حين عودته من (الطائف) وقد ذهب إلى أهلها يعرض دعوته ونفسه عليهم ، فقابلوه بأسوأ ما يقابل به كريم قوم ، حتى إنه لم يستطع دخول مكة ، لشدة أهلها عليه ، بعد ما علموا سوء فعل أهل الطائف ، ولم يستطع أن يدخل مكة إلا فى جوار المطعم بن عدى ، كان المطعم قد مات قبل بدر ، على كفره . فلما أسر الرسول من قريش ، فى بدر ، من أسر ، قال قولة النبى الكريم ، والإنسان النبيل : لو كان المطعم بن عدى حياً وكلمنى فى هؤلاء النّتْنَى لتركتهم له !!

هذا هو الإسلام فى سموه ، وعلو تشريعه ، وقدوته الإنسانية . وهذا هو الذى ندعو إليه ، ونستمسك به . فما للذين كفروا قبلنا مهطعين عن اليمين وعن الشمال عزين ؟ أيطمعون أن نقلع عن الدعوة إلى هذا السمو وذلك الفضل ، وتلك الشريعة ، بحجج يفترونها ، وتعلات يعتلون بها ، من قبيل قولهم : ظلم الحاكم فلان ، واستبد الأمير علان .. أو قولهم : تغير الزمان ، وتقدم الإنسان .. ! هل فى تلك الأمثلة ، وهذه الوقائع الإسلامية ما يناقض الزمان وتقدم الإنسان ؟ وهل وصل ذلك الإنسان (المتقدم) إلى هذا السموّ فى التشريع والمعاملة ؟ نبئونى ـ بعلم ـ إن كنتنم صادقين ! ﴿ **ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين** ﴾ .

وإلام يدعوننا ؟ وإلى أى بدل يتنادون ؟ إلى ما يضعونه بعقولهم ، أو ما يستوردونه بتقليدهم . إلى ما يقتل (شخصية) الأمة ، ويباعد بينها وبين جذورها ، فتصبح أمة ممسوخة . وشواهد هذا المسخ قائمة منذ ما سمّوه (بعصر النهضة) فأين مكاننا الآن بسبب (هذه النهضة) من العالمين ؟!

مبادىء اجتماعية

١٤ ـ الإسلام دين تتعدد دروسه ، وتتنوع مواعظه ، وتختلف مراحله .. ولكنها جميعها تنتهى إلى غاية مرسومة ، وهدف محدد . هذه الغاية ، وهذا الهدف هو : الإنسان : تكوينه الفكرى وتكوينه النفسى ، مركزه من الكون . صلته بالله ، والكون ، والناس ، وصلته بنفسه .

من أجل ذلك كان الإنسان ، الذى هو هدف الإسلام فى جميع مراحله ، ممثلاً فى هذه المراحل ، ملحوظاً فى كل دروسه ، مقصوداً فى كل مواعظه . فبدر ـ وإن كانت بالدرجة الأولى ـ معركة قتال ـ كانت ذات أثر فى تكوين الإنسان المسلم ، على النحو الذى يريده الإسلام ، فى صورته الحربية ، وصورته الدينية ، وصورته الاجتماعية ... ولهذا قد خلفت لنا غزوة بدر طائفة من المبادىء المتعلقة بالإنسان فى تكويناته المتعددة ، على النحو الذى سلف آنفاً .

ومازالت هناك طائفة أخرى من هذه المبادىء ، والقيم أخص بتكوين الإنسان نفساً ، وبمجتمعه نظاماً ، وعلاقته بالناس ، وعلاقة الناس به . من هذه المبادىء :

١٥ــ الرعاية الاجتماعية تساوى الجهاد

الجهاد فى سبيل الله ؛ لإعلاء كلمته له منزلته المعروفة فى الإسلام ، فهو ذروة السنام من أعماله ، وهو ــ كما وصفه الإمام على ، كرم الله وجهه ، باب من أبواب الجنة ، فتحه الله لخاصة أوليائه . وهو لباس التقوى ، ودرع الله الحصينة ، وجُنَّته الوثيقة . مع هذه المنزلة ساوى بها الإسلام منزلة من يرعي مجتمعه فى حاجاته . وفى حالة الحرب ولقاء العدو يكون مجتمع المسلمين ــ فى عمومه ــ فى ميدانين : ميدان القتال وما يتصل به ، والميدان الداخلى الذى يكون فى حاجة المحتاجين والضعفاء . وهذا ميدان ينظر إليه الإسلام نظرة متكافئة مع فريضة الجهاد ، مادام القتال لم يُفرض عيناً . فقد أذن الرسول ﷺ لأبى أمامة بن ثعلبة الأنصارى ، وقد أجمع الخروج إلى بدر ، وكانت أمه مريضة ــ أذن له في الإقامة علي رعاية أمه ، بل أمره بذلك . ولما عاد عليه السلام من بدر كانت قد ماتت ، فصلى عليها ، ﷺ فى قبرها !

وخلّف ﷺ عثمان بن عفان على زوجته (رقية) بنت الرسول ، وكانت مريضة .

وردّ أبا لبابة من الطريق ، واستعمله على المدينة . وخلّف عاصم بن عدى علي أهل قباء وأهل العالية . وفى الطريق إلى بدر كُسر خَوَات بن جبير ، والحارث بن الصِّمة ، فرجعهما إلى المدينة .

ومع هذه الرعاية الاجتماعية ، وتقديراً لأهلها أسهم لهؤلاء ، فأعطى كلاً منهم سهماً من الغنائم . والأعجب من ذلك الإسهام المادى الدنيوى الإسهام الأخروى ، فقد جعل كلٌّ من أسهم له يقول : وأجرى يا رسول الله ؟ فيقول ﷺ : وأجرك .

ومن مظاهر العدل الاجتماعي فى هذا العمل أنه ﷺ لما قسم غنائم بدر قسمها بالسوية ، لم يميز أحداً عن أحد : الراجل مع الراجل سواء ، والفارس مع الفارس سواء ، والضعيف والقوى سواء . حتى قال له الرامية : سعد بن أبى وقاص ، الذى لا يخطىء سهمه : يا رسول الله ، تعطى فارس القوم (أى قويهم) مثلما تعطى الضعيف ؟! فقال ﷺ : ثكلتك أمك ، **وهل تنصرون إلا بضعفائكم !!**

وكان سهمه ﷺ كسهم أحدهم . وتلك صورة من المساواة فى الأموال وثمار الأعمال ، فيها زيادة تقرير لمساواته ، ﷺ بين الضعفاء والأقوياء ، فهو عليه الصلاة والسلام ، كان أشجعهم ، حتى إنهم كانوا إذا اشتد البأس ، واحمرت الحدق اتقوا به ﷺ ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ، كما وصفه عن مشاهدة وتجربة عليّ رضى الله عنه وهو ــ مع ذلك ــ رسولهم الذى به ينصرون ، وفضله عليهم لا يقادر قدره . ومع ذلك كان فيهم أحدهم . وفي مسيرتهم إلى بدر ــ وكانوا قليلى

الرواحل ــ كان ﷺ يتعاقب ، مع رفيقيه ، البعير : يركب ورفيقاه يمشيان ، ويركبان وهو يمشى ، كسائر أصحابه يومئذ . فقال له رفيقاه : اركب حتى نمشى معك . فقال : **ما أنتما بأقوى منى على المشى ، وما أنا أغنى عن الأجر منكما !**

وقال لهم يوم حنين ، وقد تزاحموا عليه ؛ ليعجل لهم قسمة الغنائم ، فتناول وبرة من ناقة ، وقال : ليس لى من أموالكم ولا هذه الوبرة ، إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم !

هذه صورة جانبية للإسلام فى تشريعه المالى ، لها ــ مع جوانب أخر ــ قانونها المحدد ، الذى يعلمه الخاصة والعامة . وكم فى تاريخ نبى الإسلام ، وأصحابه من مثل وعبر فى التحرز من أخذ ما ليس لهم بحق ، والتشبع بما لم يعطوا .

ولعل أول انحراف فى الحكم ، بعد الاستبداد السياسى ، يأتى من قبل المال ، فيستأثر به ذوو السلطة ، به يتمتعون ، وبه يصطنعون الأعوان ، ويستتبعون الأتباع ، لا يرعون فى ذلك حقاً ولا واجباً ، ولا يخشون له عقبى . فإذا أزم عليهم الدهر ، وقل خيره ، وضاق العيش بالأمة ألقوا عبء الأزمة على الشعب ، يصطرخون فيها ، لا يغاثون ، وكان لذوى السلطة ، بسلطتهم ، ما يحميهم من تلك الأزمة وذيولها !

وإذا تكون كريهة أدعى لها

وإذا يُحاسى الحيس يدعى جندب !!

لقد كان الإسلام – فى تشريعه المالى حذراً ، عالماً بطبيعة النفس ، ففصل أحكام المال ، وفرض حمايته ، وشدد فى جزاء خيانته فى الدنيا والآخرة . فهل نعود إلى العمل به توجيهاً ، وتأديباً ؟!

الصبر

١٦ – من أهم وسائل التربية النفسية للمؤمن تعليمه الصبر : الصبر عن تعجّل الغاية ، والصبر على إعداد وسائل الغاية ، والصبر علي التعلم الفكرى والعملى ، فى الوسائل ، والغايات . والصبر على المحن التى يبتلى بها المؤمن فى إعداد نفسه لوسائله وغاياته . والصبر فى مواطن البأس ، وميادين اللقاء بينه وبين أعداء إيمانه ، التى يفرضها عليه أولئك الأعداء .

هذا الخلق النفسى ، وفى صورته الظاهرة هو الذى يُعدّ المؤمن للفوز ، ويؤهله للفلاح ، ويفرج الله به عنه كرباته . إنه خلق أولى العزم من الرسل ، وتعلمه منهم حواريّهم وأتباعهم ، فأقاموا الدين ، ونهضوا بالإنسانية . وتوارثته البشرية فأقامت به العلم ، وكشفوا أسرار الكون ونواميس الحياة .

الصبر والتقوى هما القوة المعنوية اللازمة للنجاح والعمارة – بعد القوة المادية وقبلها . وبهذه وتلك تتم للمؤمنين عدتهم ، فيستوجبون عون الله .

إن الإخلال النفسى والتربوى بالصبر والتقوى ، والإخلال المادىّ فى وسائل القوة ـ تفريط لا يحمى الله صاحبه . والأخذ بهما حذر لا يضيع الله صاحبه . إن المسلمين لم يلتقوا بأعدائهم ، فى بدر ، إلا بعد هذا الإعداد ، ولا سيما الإعداد التربوى ، والتقويم العقائدى الذى منحهم شجاعة لا تمنحها معطيات البشر من الوطنية ، والقومية ، وما إليهما من القيم الأرضية . وسأذكر نماذج لهذه الشجاعة ؛ لعلها تكون باعثاً لنا لتطوير مناهجنا التربوية على أساس بعث هذه القيم السماوية ، التى تحيى موات الأنفس ، وتبعث نبض القلوب .

لقد كان من تمام هذا المنهج التربوى أن يذوق المسلمون مرارة التقصير فيه ، فتتم إيجاباً وسلباً :

فى بدر كانت حالهم النفسية على ما وصف ربيئة قريش : عمير بن وهب : البلايا تحمل المنايا .... وخطبهم الرسول ﷺ قبيل المعركة ، فكان مما قال : إن الصبر فى مواطن البأس مما يفرّج الله به الهمّ ، وينجى به من الغمّ » . لقد وضع لهم ذلك القول موضع القاعدة العامة ، التى يحكم الله بها سنة من سننه فى المجتمع البشرى ، فامتثلوا ، وكانوا مثلاً حسناً فى الصبر والتقوى ، فأيدهم الله بنصره .

وفى أحد قال ﷺ للرماة : احموا لنا ظهورنا ، والزموا مكانكم ، لا تبرحوا منه ، وإذا رأيتمونا نهزمهم ، حتى ندخل عسكرهم ، فلا تفارقوا مكانكم . وإن رأيتمونا نُقتل فلا تعينونا ، ولا تدفعوا عنا ، اللهم إنى أشهدك عليهم . وكان مما قاله في خطبته العامة للجيش كله :

« إنكم بمنزلِ أجرٍ وذخرٍ لمن ذكرَ الذى عليه ، ثم وطن نفسه على الصبر واليقين ، والجد والنشاط .. »

قال لهم ذلك ، وكأنه كان يتكلم عن ظهر الغيب ، ولكن الرماة خالفوا قوله ، فأصابهم ما أصابهم ، مما أوجع قلوبهم ، وشفى صدور عدوهم ! لقد وعدهم الله النصر ، يوم أحد وعلق وعده لهم بالصبر والتقوى ، ﴿ .... **إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين** ﴾ ولكنهم تخلف عنهم الشرط ، يوم أحد ، وذلك بفشلهم المنافى للصبر ، وتنازعهم المنافى للتقوى ﴿ **حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون** ... ﴾ .

فإذا كان صبرهم وتقواهم فى بدر قد عاد عليهم بالنصر والعزة ، وعلى دينهم بالمنعة . وإذا كان فشلهم وتنازعهم ، فى أحد ، قد عاد عليهم بالهزيمة ــ فهذا يقرر مبدأ ذاتياً ، يؤكده القرأن ، هو : أن حسن الصفات وسوءها ، إنما تعود آثاره . ويجنى ثماره صاحبها ، فهو أول جان لثمار ما اتصف به ، الحسن بالحسن ، والسيىء بالسيىء . قال عبادة بن الصامت : فينا ــ أصحاب بدر ــ نزلت سورة الأنفال ، حينما اختلفنا فى النفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من أيدينا ، وجعله إلى الرسول ، فقسمه ﷺ علي بواء (= سواء) فكان فى ذلك تقوى الله ، وطاعة رسوله ، وإصلاح ذات البين .

قال أبو حازم المدنىّ : أسعد الناس بالخلق الحسن صاحبه : نفسه منه

فى راحة ، ثم زوجته وولده ، حتى إن فرسه ليصهل إذا سمع صوته ، وكلبه يشرشر بذنبه إذا رآه .. وإن السيىء الخلق لأشقى الناس : نفسه منه فى بلاء ، ثم زوجته ، ثم ولده ، وإنه ليدخل وهم فى سرور ، فيتفرقون فرقاً منه ...

لقد كانت مراحل الدعوة الإسلامية دروس تربية ، وتعليم وتهذيب .. للمسلمين تُجَلى فيها الحقائق الكلية المجردة ، فتكون أوضح فى الفكر ، وأثبت فى النفس والضمير . ولم تنصرف عناية الإسلام لتقرير (نظريات) ينتطح فيها الأفكار بعيدة عن واقع الحياة العملية فتظل مجرد (نظريات) ، قد تظل مجرد أفكار ، ويظل وجودها (وجوداً ذهنياً) محضاً ، أو يثبت التطبيق لها عجزها عن صناعة الإنسان ، وإخراجه فى صورته الإنسانية المحدودة .

ومن هذا التقرير ندرك لماذا تفشل معاهد التعليم عن صنع ذلك الإنسان . إن التربية العملية هى التى تنتهى بصاحبها إلى الإيمان بالحقيقة المجردة ، إن ممارسة القيم بطريقة التنشئة عليها . والمصابرة لها هى المقدمات الصحيحة للنتائج النظرية الكلية الذهنية .

وهذا هو طريق التعليم الصحيح . وهو طريقة الإسلام .

الغلو فى الدين

١٧ ــ من هذه الدروس العملية ، التى ربى بها الإسلام المسلمين ،

لينتهى بهم الدرس العملى إلى تقرير مبدأ عام ـ ما قام به الرسول ﷺ حين سار إلى بدر يوماً أو يومين من الفطر . فمن المعلوم أن غزوة بدر كانت فى رمضان ، وأن رسول الله ﷺ ، خرج من المدينة لثمان خلون من شهر رمضـــان ، وكان صائماً ، فلما سار مدته تلك أمرهم ليفطروا فتحرج بعضهم ، فأمر مناديه : **يا معشر العصاة ، إنى مفطر فأفطروا .** وبهذا يضع الرسول ﷺ قاعدة صلتنا بالدين وهى عدم الغلو والتنطع فى الأخذ بالدين ، والغلو ، أو الإفراط ، وكذلك التهاون ، أو التفريط ، من سجايا النفس فى تناولها للأشياء ، ولا سيما ما يتصل بموضوع القلوب والاعتقادات . وخطة الإسـلام ، فى كل أمـــوره ، العملية والنفسية ، خطة القصد والتوسط ؛ ولذلك جعل فى مقابل عزائمه ، الرخص التى تيسر على المسلم تناول شئون الدين ، وحبب إليهم الأخذ بها كحبه لأخذهم بالعزائم . ومن ثم كان نداء الرسول على المتشددين الذين تحرجوا من الرخصة ، رخصة الفطر فى نهار رمضان : يا معشر العصاة ، إنى مفطر . فمن ذا الذى يرغب بنفسه عن رسول الله ؟!

١٨ ـ وقد وضع العلماء ، بعد ، قاعدة توضح كيف يكون المسلم غير غالٍ ولا متنطع فى دينه . قال شيخ الإسلام ابن تيمية ، رحمه الله : **تعظيم أمر الشريعة ونهيها هو : ألا يعارضا بترخص جافٍ ، ولا بتشدد غالٍ ، ولا يحملا على علة توهن الانقياد .**

ومعنى الترخص الجافى :

أن يسترسل مع الرخصة إلى حد يكون معه جافياً غير مستقيم على

المنهج الوسط . مثال ذلك : أن السنة وردت برخصة تأخير صلاة الظهر ، عند اشتداد الحر ، حتى تهدأ وطأة الحر ، قال ﷺ : « إذا اشتد الحد فأبردوا بالصلاة ، فإن شدة الحر من فيح جهنم » فالترخص الجافى أن يبرد إلى فوات الوقت ، أو مقاربة خروجه .

ومن أمثلته : أن الشرع رخص للمسافر فى الجمع بين الصلاتين ، عند العذر أو المشقة ، فالترخص الجافى أن يقيم فى المنزل يوماً ، أو أياماً ، فيجمع بين الصلاتين ، فالجمع لا موجب له ، لتمكنه من فعل كل صلاة فى وقتها ، من غير مشقة . **إذ الجمع ليس سنته ﷺ ، الراتبة ، ولا طريقته التى كان يواظب عليها ، بل الجمع رخصة عارضة ، والقصر سنة راتبة ، فسنة المسافر قصر الصلاة الرباعية ، سواء كان له عذر ، أم لم يكن ، وأما الجمع بين الصلاتين فحاجة تقدر بقدرها .**

ومن أمثلته : أن الشرع أباح الطيبات من الرزق ، وأباح الزينة . فالترخص الجافى أن يجعل همه التمتع بالطيبات ، وأن يحرص على الشبع منها بل ينبغى أن يستمتع ، وأن يمتنع ، وأن يستلين ويستخشن ، وأن يجوع ويشبع ، ويدع المباح وهو يشتهيه .

وميزان ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « ثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » .

ومن يَقُصّ حال المسلمين اليوم يجد أكثرهم على هذا الترخص الجافى بحيث بعدوا فى حياتهم المعيشية ، ونظمهم الاجتماعية ، وأساليبهم السياسية ، عن جادة الدين ، ومنهم من يحتج عليك ـ إذا

نبهته أو وعظته ــ بأن الدين يسر ، وقد يذمك بالتشــدد ، والرجعيـة ، ولا سيما أولئك الذين أشربت قلوبهم تقليد غير المسلمين ، والتشدق بمبادئهم ، والتجمل بطباعهم .

ومن أشد أمثلته ، التي شاهدتها : استرسال بعضهم في ترك بعض الفروض العينية كالصلاة مثلاً ، بحجة أن الله تعالى رحيم ، أو حجة أن من قال : لا إله إلا الله دخل الجنة ، أو حجة أن الرسول ﷺ يشفع لأمته يوم القيامة !

وقد أوقعت هذه النظرة الجانبية إلى الدين كثيراً من الناس في مخالفات يخشى منها على دينهم وسلامته ، بحيث إنك لتتوقف كثيراً في وصفهم بالمؤمنين المسلمين !

ويقابل هؤلاء المترخصين الجفاة المتشددون المغالون .

ومعنى التشدد الغالي : أن يغالي المتدين في الأمر والنهي ، ويبالغ في الاستمساك بهما ، حتى يخرج من حدّ الالتزام إلى المبالغة والغلوّ والتنطع ، ومن أمثلة هذه الحال :

تكفير من يرتكب ذنباً ، مع سلامة قاعدة إيمانه ، وقصر النظرة إليه علي جهة الذنب ، والتعامى عن قاعدة الإيمان السليمة . كأن الإيمان ، عند صاحب هذه النظرة يخرج المؤمن من بشريته ونوعه ، فما ينبغي له أن يذنب أبداً !

ومن أمثلة ذلك الغلو : رفع بعض الأعمال المشروعة فوق منزلتها ،

ثم جعلها ميزاناً للحكم على الناس ، وتعيين درجتهم من الإيمان ، بها فمن أخذ بها فهو المؤمن ، ومن تركها كان غير ذلك ، كحمل السواك ووضعه على الأذن ، والتسوك بالإصبع أثناء القيام فى صف الصلاة ، والتسوك حين الجلوس مع الجماعة . ومثل اطلاق اللحية ، والحكم على غير الملتحى بالكفر ، أو الفسوق ، والإعراض عنه ، وترك الجماعة وراءه . ومثل تقصير الثوب ، والحرص على لبس الجلباب ، والحكم بالكفر ، أو الفسوق على لابس الحلّة (البدلة) واعتبار لابسها غير أهل لدعوة الناس إلى الإسلام .

ومن أمثلتة ترك السلام على من لا تعرف حتى تتبين اسلامه . ومن أمثلته التشدد فى الورع عن طعام الناس بحجة الخوف من أن يكون كسبه من حرام ، أو الظن بأن فيه شبهة .

وقد دخل مثل هذا التورع المتكلف على بعض العباد قديماً حتى امتنع من أن يأكل شيئاً من بلاد المسلمين ، وكان يتقوت بما يحمل إليه من بلاد غيرهم ، ويبعث فى طلب ذلك ، فأوقعه الجهل المفرط ، والتشدد الغالي ، فى سوء الظن بالمسلمين ، وحسن الظن بغيرهم !

ومن خالط كثيراً من المتشددين فى دينهم ــ من الذين لم يفقهوه حق فقهه ــ يقع على أمثلة كثيرة لهذا التشدد الغالى .

ومن أهم أمثلته ــ فى حاضرنا ــ النظرة إلى الإسلام من جانب مافيه من تشريع القوة ، والشدة على الكفار ، والجهل ، أو التقصير فى معرفة سوابق استعمال القوة ، وشروط العمل بها ، والتقصير فى معرفة

مواضع الرحمة ، والدعوة بالحسنى .

وإذا كان هؤلاء المغالون فى هذا الجانب ، على جهل بالنظرة الإسلامية الشاملة ، فما عذر من يحاول تقويمهم ــ عن طريق العلم ــ بعرض الإسلام من جانب الرحمة ، والحسنى فقط ، وإخفاء جانب القوة فيه ؟!

إن مثل هذا العرض كان من أسباب انصراف الشباب عن العلماء ، وتصنيفهم إلى علماء سلطة وأحرار .

وما عذر الذين يحاولون تقويم الشباب الغالى ــ بزعمهم ــ عن طريق القوة والقسوة البالغة فى معاملتهم ، وإهدار آدميتهم ، بحجة تحقيق الأمن والاستقرار ؟!

إن (الاستقرار) قيمة ، ولكنه لا يكون كذلك إلا أن يقوم على أساس ذاتى ، وأن تعايشه قيم أخرى ليس هو بأفضل منها ، ولا هو أسبق منها ، فالحرية والعدل والإخاء ، وحفظ معنويات المجتمع ، المكونة لشخصيته ، والمميزة له عن غيره .. كل أولئك قيم تمكن لقيمة الاستقرار .

كما أن (الاستقرار) القائم على البطش ، والرهب والاستبداد ، لا يكون هو (الاستقرار) المحمود ، ولا القيمة المرعية . بل هو (المتفجر) الموقوت ، الذى ينتظر وقت انفجاره ، أو البذرة الدفينة ، التى ترجو سيحاً من جدول يسرى ، أو سحابة تهمى فتنبت خضراً ، يؤتى ثمره

فــى حينــه . ولن يكون ثمراً طيباً ، إنما هو ثمر خبيث ، خبثه على مقدار ما سببه من كبت وقهر واستبداد .

ومن عجيب هذه الثمار أنها لا تكون من الذين أصابهم القهر ، بل تكون من جيل تابع ، تابع للتابع ، حيث يكون أولئك المتجبرون قد ذهبوا وهم يظنون أنهم خدموا سلطتهم ووطنهم ، وتكون عاقبة الذين أساءوا السوءى على جيل آخر لم يكن من جناتها ، وعلى الوطن كله برغم الذين زعموا حمايته واستقراره . وشواهد التاريخ ووقائع الحاضر ، والماضى قريب أشهاد صدق على ذلك !

فهل من مدّكر ؟! وإلى المظهر الثالث من مظاهر الغلوّ :

أما حمل الشريعة على علة توهن الانقياد : فهو أن يبحث عن علة غير منصوص عليها فى الشرع ، ويجعلها ، من يريد الإنفكاك من الشرع ، علة للأمر ، فيتركه ، أو للنهى ، فيفعله .

وقد لاقيت من هؤلاء كثيراً :

منهم من زعم لى أن الصلاة إنما شرعت لإحسان معاملة الناس ! فمن أحسن معاملة الناس فقد حصل الغرض ، وحقق العلّة ، فلا يطالب بالصلاة . كما زعم بعض المتفلسفة قديماً بأن الصلاة نوعان : صلاة جسمية ، متمثلة فى حركات الجسم ، وهى للعامة ، وصلاة عقلية ، وهى للخاصة ، وهذه الأعلى والأرقى ، فمن حققها سقطت عنه الصلاة الأدنى ، وعلى هذا التعليل لا يطالب الخاصة (من هؤلاء المتفلسفة) بالصلوات الخمس .

وهذا الغلو فى البحث عن العلة التى توهن الإنقياد هو منهج (العلمانيين) اليوم ، وجماع ما يتعللون به ، هو : أن التشريع الإسلامى إنما كان لوقته وبيئته :

ففى (الميراث) جاءت الآيات المذكورة من سورة النساء تخفف من وطأة هذا الإجحاف (النظام الجاهلى فى التوريث) وإن كانت قد نصت على أن حظ الذكر من التركة مثل حظ الأنثيين ، مراعية بذلك ما كان الرجل يتحمله دون الأنثى من أعباء مالية(١).

ويكمل (المشوار) الصحفى أحمد بهاء الدين ، فى أعداد من صحيفة الأهرام من شهر ديسمبر سنة ١٩٨٨ : بأن المرأة لم تعد حريماً ، ولذلك يطالب بأن الميت لو ترك بنتاً تكون لها التركة كلها ، قياساً على (الابن) !

(وحد السرقة) إنما كان لأن العربى كان يحمل كل ماله على ناقته ، فكان (سلبه) بمثابة قتله(٢).

(وحد الزنا) لم يعد من الممكن تطبيقه الآن لأن فن المعمار اليوم يحول بين الشهود ورؤية واقعة الزنا ، إن المصلحة اليوم فى الأخذ بهذا الجديد .. وهكذا نجد مع الجديد الذى جاء به الزمن ما يدفع إلى تغيير الأحكام(٣).

---

(١) حسين أحمد أمين فى مجلة العربى : ٣٦١ : ١١٣ . وهكذا سلسلة مقالاته فها تحت عنوان : البيان فى أسباب نزول القرآن .

(٢) حسين أحمد أمين : دليل المسلم الحزين . (٣) محمد خلف الله : مجلة العربى : ٣٣٨

(وفريضة الزكاة) : عالجها القرآن بطريقة تناسب بيئة نزوله وبأسلوب يتناسب مع زمان هذا النزول . أما هذا الأسلوب فقد أصبح يجرح شعورنا الآن ، فعلينا أن نستبدل بألفاظ : (الزكاة) (والصدقة) (والإحسان) ألفاظاً أخرى تناسب العصر مثل : (المعونات الاجتماعية) (المساعدات الاقتصادية) .

أما ألفاظ القرأن فتظل باقية عنده ، لا ليعمل بمدلولها ، بل يبقى عليها للتعبد فقط[1]!!

وهكذا يحاولون نقض الشريعة عروة عروة ، باختراع تلك العلل ، على نحو ما سلف آنفاً ، مما يأنف منه من يحترم عقله ، ولا يقوله إلا من سفه نفسه !!

إن شريعة الإسلام لم تقم على متطلبات البيئة المكانية والزمانية . إنما قامت ـ أول ما قامت ـ على طبيعة النفس الإنسانية الخالدة بخلودها . ومن ثم كانت أحكاماً إنسانية مسايرة لطبيعة النفس البشرية فى كل زمان ومكان ، فالقول بتعليلها بالزمان والمكان جهل بأساس التشريع الإسلامى ومحاولات ملحدة للتفصّى من عقال الشريعة . إنما المعظم ـ حقاً ـ لأمر الله ونهيه ، هو الذى لا يحمل الأمر على علة تحمل على الفكاك من الالتزام والانقياد ، والتسليم لأمـر اللـه ، إنما المسلم ـ حقاً ـ من يقبل حكم الله ، مؤمناً به ، لا يجد فى نفسه حرجاً منه ، سواء ظهرت له

---

(١) محمد أحمد خلف الله : هكذا يبنى الإسلام . ولكاتب هذا البحث كتابان فى الرد على العلمانيين ط دار الوفاء بالمنصورة .

الحكمة أم لم تظهــر ، فإن ظهرت له زادته إيماناً ، وإن لم تظهر له زادته استسلاماً !

إن أصحاب هذه التعليلات يستبدلون بعبادة الله عبادة عقولهم ، ويقدسون ما انتهت إليه فوق تقديسهم ما جاء عن الله تعالى .

وهذا ميراث ورثوه عن قوم ظلمهم (كهانهم ورؤساء دينهم) ، وشرعوا لهم مالم يشرعه دينهم ، وجعلوا لما اشترعوا ، واخترعوا قداسة ماجاء عن الله ، حتى انتهى هذا البهتان المستبد إلى ثورة فعلية ، وأخرى عقلية قضت على هؤلاء الكهـان ، وعـدت على الدين ذاتـه ، وأحلت (العقل) محله ، وحسبت أن فى العقل (والعلم) غناء عن الدين ، وكفاية عن الوحى ، وادعت أن فى (العلم) جواباً عن كل سؤال ، وإن لم يكن اليوم فغداً ، لذلك عبدوا العقل وعبدوا العلم .

قومنا هؤلاء على إرث من أولئك العابدين لوثن العقل والعلم .

ومن عجب أن هذه العبادة أخذت تتراجع عند قومها ، وأثبت لهم عقلهم ، أن الكون غنى بالأسئلة التى لا جواب لها عنده ، وأثبت لهم العلم أن الكون ملىء بالأسرار التى كلما كشف عن بعضها زاده كشفها علماً بعجزه .. وأصبح ذلك من بدهيات العلوم والعقول .

وقد برىء الإسلام ، وعلماؤه من هذه السيطرة باسم الدين ، أو الاشتراع باسمه ، كما برىء من مخالفة العقل ، إذ من المسلمات الإسلامية أن التشريع حق الله ، وليس لأحد أن يشرع للناس . وبرىء

الإسلام من أن يأتى بما يناقض العقل . **فكل نصوص الإسلام إما مما يدرك العقل حسنه ، وإما مالايدرك ذلك منه ، ولكنه لا يناقض العقل بحال** . وهذه قاعدة يجب حرص المسلم عليها فى فهمه وعلاقته بنصوص الإسلام . وهذه قاعدة يقرها (العلم) ويقرها العقل ، بعد خوضهما معركة الجحود لما أتى به الدين . فهؤلاء الذين سلف لنا ذكر أمثلة من تفكيرهم ، وموقفهم من نصوص الإسلام ـ هؤلاء (العقلانيون) بزعمهم أول الخارجين عن العقل ، الزاعمون له ملا يزعمه هو لنفسه ، والرافعون له إلى منزلة أباها عليه تجاريب العقل والعلم !

إن الحسنات يذهبن السيئات

١٩ ـ ذاك مبدأ قرره الإسلام بنصوصه ، وأكدته غزوة بدر بملابساتها . وهو مبدأ يرفع عن الإنسان إصره ، ويشرح له صدره ، ويضع عنه وزره ، ويغلق عنه باب القنوط ، ويفتح له باب الرجاء ، ويفسح له مكانه فى مجتمعه ويلفته عن ماض أليم ، ويأخذ بيده إلى مستقبل بانٍ ..

إن كثيراً من الناس يقنطهم السوء ، ويحرجهم الإثم ، فيفسد عليهم حياتهم .. فرفع عنهم الإسلام هذا الحرج ، وآنسهم بالرجاء ، ودفعهم إلى العمل الصالح ، يمحون به السيىء ، ويبنون به ما تهدم ، ويقومون ما اعوج .

وإن كثيراً من الناس ينظرون إلى غيرهم من جهة سيئاتهم ويغفلون

عن حسناتهم ، فجاءت ثمرات غزوة بدر لترد على هؤلاء معيار نظرتهم إلى غيرهم ، ولتضع معياراً غير معيارهم : « ما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم » . إنه تغيير النظر فى تقدير الناس ، لننظر إليهم من جانب أعمالهم الكبيرة ، وآثارهم الحميدة ، ولا نركز النظر إليهم من جانب سيئاتهم التى قد يخطئون فيها ، بحكم قانون الضعف البشرى ، والقصور الإنسانى . هذا التركيز يقنط المخطىء ، ويدفعه إلي المزيد من الخطأ . بينما النظر إليه من جانب حسناته ، ولا سيما كبرياتها ، يغريه بالمزيد منها ، ومعالجة الخطأ ، والبراءة من أسبابه . إنه قانون يصلح الإنسان ، ويزيد من قواه الخيرة ، ويصلح من الحياة ، ويزيد فيها من موجبات الخير ، وهو بعد قانون يحاكم إليه المسلم فى الدنيا والآخرة .

عندما راسل حاطب بن أبى بلتعة ـ وهو بدرى ـ أهل مكة يخبرهم بتجهيز رسول الله ﷺ لفتح مكة ، واتهم عمر حاطباً بالنفاق ، قال الرسول لعمر : « وما يدريك أن الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » !!

وجاء غلام لحاطب إلى النبى ، فقال له : والله يا رسول الله ، ليدخلن حاطب النار . فقال ﷺ : « كذبت ؛ إنه شهد بدراً والحديبية » .

فههنا تقرير لما سلف من ذلك المبدأ الإسلامى العظيم : المؤمن قد يعمل من الحسنات ما يغفر له بها ما تأخر من ذنبه !!

وليس ذلك إقراراً للمؤمن على الذنب ، بل هو من قاعدة الإسلام

التى قررها فى معاملة الله للعبد ، وما يجب على المذنب حيال ذنبه ، ومنهج المسلم فى علاج خطئه : ﴿ **إن الحسنات يذهبن السيئات** ﴾ .

وليس هو ، أيضاً ، تصريحاً وإباحة لترك أسباب المغفرة ، ومحو الذنوب ، إنما هو بيان لعدل الله ورحمته ، أنه لا يمحو الأعمال العظيمة لجريمة اجترمها صاحب العمل العظيم . لقد احتمل الله من موسى عليه السلام ، حينما عاد إلى قومه ، بعد لقاء ربه وإنزال ألواح التوراة عليه ، ووجد قومه قد اتخذوا من حليهم عجلاً جسداً ، فغضب على أخيه هارون ﴿ **وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه** ﴾ احتمل الله من موسى إلقاء الألواح ، وغفرها له . إنه باب واسع من أبواب الرجاء . يرفع عنه اليأس ، ويغسل عنه الحوبة .

٢٠ ــ وههنا شىء مهم يلزم المسلم أن يعيه ، لنفسه ، ولنظرته إلى غيره . عرفنا أن من الناس من يضيق عليهم حياتهم اليأس لما أصابهم ، والقنوط من رحمة الله لما فعلوا من سوء . وآخرين تعشى أبصارهم وأفكارهم عن إحسان المحسن إذا زلت به قدمه إلى ذنب أو تقصير ويصدرون عليه أحكاماً قد تصل إلى العظائم : من الكفر أو الفسوق .

وقديماً حصل هذا الزلل الدينى والفكرى ، واعوج بأصحابه عن صراط الله المستقيم ، ورحمته التى وسعت كل شىء ، وعدله الذى لا يضيع صغيره من الخير : قديماً تقدّم (الرافضة) الذين يكفرون الراشدين والصحابة ؛ بحجة اختلاف بعضهم على بعض ، تمسكاً بالمتشابه من قوله ، عليه الصلاة والسلام : « لا ترجعوا بعدى كفاراً

يضرب بعضكم رقاب بعض » . تاركين الصريح الصحيح المحكم ، المعلوم عند الخاصة والعامة بالضرورة فى مدح الصحابة والثناء عليهم ، ورضا الله عنهم ومغفرته لهم ، وتجاوزه عن سيئاتهم ، ووجوب محبة الأمة لهم ، واقتدائها بهم ، واستغفارها لهم .. كما تركوا الأبواب التى فتحها الله لتكفير الذنوب ، والتى هى من خصائص الإسلام ، حين لم يجعل الخطيئة ضربة لازم ، لا يستطيع فاعلها التخلص منها ، ولا التطهر من آثارها ، كما لم يجعلها ميراثاً يتوارثه الأبناء عن الآباء ، والأحفاد عن الأجداد ، بل فتح الإسلام أبواباً متعددة ، تمحو عن المسلم خطيئته التى لم تحط به ، ونوع الإسلام هذه الأبواب ، حتى تتناولها القدرات المتفاوتة ، ولا تقصر عن أحدها الهمم الضعيفة . وهذه الأبواب هى :

* الحسنات الماحية ، التى يتبع بها المخطىء خطيئته ، أو تكون سابقة عليها .

* والتوبة النصوح ، التى يقلع صاحبها عن ذنبه ، ويندم عليه ، ويعزم معها علي عدم العود ، ثم يتبع هذا الرجوع عن المكروه بالذهاب إلى المحبوب . فمن ذا يمترى فى أن توبة استوفت هذه الأركان تكون محاءةً للخطايا ؟

* والإستغفار ، والله تعالي يقول ﴿ **ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً** ﴾ .

* والمصائب المكفرة ، كما أخبرنا الصادق الأمين ﷺ أن ما يصيب المسلم من نَصَب ، ولا وَصَب ، ولا همّ ، ولا حزن ، ولا أذى ، ولا

غمّ ، حتى الشوكة يشاكها إلا كفّر الله بها من خطاياه .

* ودعاء المسلمين لإخوانهم ، فى حياتهم وبعد مماتهم ، وهو من نصوص القرأن الكريم ، ومما يتعبد به المسلمون فى ذكرهم ، وقد رآه الإمام الشافعى ركناً من أركان خطبة الجمعة ، تبطل بتركه !

* ومن مكفرات الذنوب الامتحان فى البرزخ ، حيث يكفر به الله عن المسلم .

* كما يكفر الله عنه بشدة موقف القيامة . وهذا ، بذاته ، باب عظيم من رحمة الله ، هو وسابقه .

* وكذلك بشفاعة من يأذن الله له بالشفاعة .

* ومن أعظم الأبواب المكفرة صدق المسلم فى توحيده ، فإن من قال كلمة التوحيد خالصاً مخلصاً من قلبه غفر الله لــه .

* وختام المسك فى هذه الأبواب : رحمة الله التــى خلقهــا ، يوم خلقها مائة جزء ، أنزل إلى الدنيا جزءاً واحـداً ، واحتجز عنده ، للآخرة ، تسعة وتسعين جزءاً ، فمن هذا الجزء الدنيوى يتراحم الخلق ، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه .

فهذه عشرة أسباب تمحق أثر الذنوب . فمن ذا الذى يتجرأ على الله ويتألى عليه أن فلاناً كافر غير مغفور له ؟

وشبيه بهؤلاء من يحاول رفض الإسلام ، ويستعلن برفضه محتجاً

بما فى بعض فترات التاريخ الإسلامى من مجافاة للإسلام . ومثل هؤلاء عندى كمثل من ترمد عينه زمناً فيريد أن يقتلعها ، أو كمثل من يمرض رَدَحاً من الزمن فينتحر . وليت شعرى فى أى عقل يتقرر ذلك ، إن فترات التجاوز فى تاريخ المسلمين قليلة بالنسبة لتاريخه المديد ، وإن ديناً تجاوز ، فى امتداده ، والعمل به أربعة عشر قرناً لجدير أن تمحو حسنات أهله سيئاتهم ، بمقياس العقل ، ومقياس الإسلام نفسه . على أن الذين يدعون إلى نبذ الإسلام لا يأتوننا ببدل خير منه ، أو يساويه ، وما كان من بدل ارتضوه لم يبرأ مما قالوه عن تاريخ الإسلام ، بل لعله شاهد ما هو أحط لكرامة الإنسان .

إن وثيقة حقوق الإنسان ، التى وضعتها (عصبة الأمم) لم تأت بجديد على الإسلام ، وإن أتت بكل جديد على غير المسلمين . ومع ذلك لم ترعها الأمم التى تعاهدت عليها ، وتعاقدت ، بل كانت فى معاملتها للأمم الضعيفة ، متجاوزة لكل قيمة وعدل . ولم يكن ظلمها وغشمها مقصوراً على أفراد ، أو طائفة ، بل شمل أمماً ، بل قارات ، ومازال اسم (أفريقيا السوداء) قائماً شاهداً على لون معاملاتهم . فهل يستقيم ــ فى حكم العقل ــ أن ندع الحقوق الإنسانية ، لأن الذين وضعوها تجاوزوها ؟! إن العقل قاض فى هذا الانحراف قضاء حقاً ، لا يجادل فيه إلا القوم الخصمون ، ذلك : أنه يجب زيادة التمسك بهذه المبادىء ، والدعوة إليها والعمل بها ، وأن ذلك هو العلاج لتجاوز المتجاوزين ، حتى وإن كانوا من واضعى تلك الحقوق . ولعمرى لو آخذنا كل قيمة وفضيلة بإثم الآثمين فيها ، وتجاوزهم

حدودها ، لما أبقينا على فضيلةٍ ما ، إذ ليس هناك مبدأ قويم ولا فضيلة فطرية أو متعارفة إلا وارتكبت باسمها اثام ومآسٍ ، فالدعوة إلى نبذ الإسلام ، وترك العمل بشريعته لمثل ذلك تجاوز عقلى بدهى ، ممن يدّعون العقل والعلم ، وإن الفضيلة فضيلة ولو تنكر لها كل المارقين ، والحق حـق وإن سمـاه المبطلون اسمـاً من صفتهـم ، وخلعوا عليه أوزارهم !!

إقامة الحدود

٢١ ـ من أحكام الشريعة ما يسميه العلماء : حق الله : وعادتهم فى تفسيره : أنه ما فهم من الشرع أنه لا خيرة فيه للمكلف ، سواء أكان له معنى معقول أم لم يكن له معنى يدركه العقل . مع ملاحظة ما سبق من أن نصوص الشريعة لا تأتى بما يناقض العقل .

وما يسميه العلماء : حق العبد ، وعادة العلماء فى تفسيره : ما كان راجعاً إلى مصالحه فى الدنيا ، فإن كان من المصالح الأخروية ، فهو من جملة مـا يطلـق عليـه أنـه حـق اللـه .

والحدود ، وهى المقدَّرات ، لرجوع تقديرها إلى الشرع ، من حق الله فلا خيرة فيها لإنسان ، حاكماً كان أو محكوماً ، ولا شفاعة فيها لأحد من أحد ، ولو كان المشفوع له مميزاً بعمل ، أو نسب ، لذلك قرر العلماء : أن الشفاعة الحسنة عند ولاة الأمر فى غير الحدود مسنونة .

أما الشفاعة فى الحدود ، فيترك الحد لمشفوع له ، ويقام على غيره ، فقد قرر الشرع أنها من موجبات إهلاك المجتمع : قال ﷺ لحِبّه : أسامة بن زيد ، لما كلمه فى شأن المخزومية التى سرقت ، فحكم عليها النبى بالحد : أتشفع فى حد من حدود الله تعالى ؟! ثم قام فخطب فقال : إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد . والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها .

وعلى هذا الحكم الشرعى الجازم ، والواقع التطبيقى القاطع جرت معاملة البدريين إذا ارتكبوا موجب حد من الحدود : فقد شرب بعض البدريين الخمر ، أيام عمر ، متأولين قوله تعالى : ﴿ **ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا** ﴾ فاستتاب عمر والصحابة من شرب بهذا التأويل ثم أقاموا عليه الحد ، ومن هؤلاء : قدامة بن مظعون . وكان قدامة متزوجاً أخت عمر ، وكان عمر متزوجاً بأخت قدامة ، وهى أم حفصة ، زوج النبى ﷺ فكان قدامة خالاً لحفصة ، ولأخيها : عبد الله ، ومع كل هذا الصهر العريق ، والنسب الرفيع أقيم عليه الحد ، ولم يشفع له نسب ولا صهر ! وفى هذا تقرير عملى على المساواة ، التى شرعها الإسلام ، وأحكمها التطبيق . فهذا بدرى ، وخال زوج من أزواج الرسول ، وصهر لعمر ، وعمر صهره وخال أولاده ، ولم يشفع له كل ذلك فى حد من حدود الله استوجبه ، شهد به شهود ، استوثق من شهادتهم عمر ، بشهادة زوجة قدامة ، إذ شهدت

على زوجها بالسكر !!

أين هذا التشريع الإسلامى ، وتطبيقه العملى ، الذى لم يعف صحابياً هذه منزلته ، وذاك ماضيه ، وتلك صلاته بالقيادة الدينية ، والسياسية .. أين هذا من المسلمين اليوم ؟! وأين هذا من قوم قاموا بعمل اجتماعى ، أو سياسى ، قد تختلف حول قيمته الآراء ، لكنهم لما مكنهم ما عملوا من السلطة رفعوا أنفسهم فوق كل منزلة ، وكل قانون ، ثم يتسابق المتسابقون ، فى التشريع لهم بما يحقق أهواءهم ، ويحميهم من المؤاخذة ؛ لتستباح لهم كل الطيبات ، وتستحل لهم المحرمات ، لا يجرى عليهم قانون ، ولا تشير إليهم بنان الاتهام ، بل يتلى فى المحافل حمدهم ، وتسطر الكلمات فى مدحهم ، وتتقارع الأكف فى التصفيق لهم ...

لقد أصبح الإسلام بنظمه التشريعية غريباً بين أهله ، منكراً من ذوى السلطة فيهم ، سلطة الثقافة ، أو الفكر ، أو السياسة ، وأصبح الداعى إلى الإسلام فى علاقته بالمجتمع والدولة داعياً إلى أمر غريب ، وأصبح الإسلام لا يتمثل عند الكثيرين إلا فى الصورة التى يتمثلها الأوربيون لدينهم ، صورة الدين الذى لا شأن له بالمجتمع والدولة ، تلك الصورة التى يمثلها بوضوح قول أحد كبار المسئولين (أهرام ١٣ / ١ / ١٩٨٩) : نحن لا نعارض الإسلام المتمثل فى العبادات ، والصيام ، والزكاة ، وعمل الخير . أقول : وهذا هو الإسلام فى صورة مسيحية ! فهل يرضى ذوو السلطة فينا هذه الصورة ؟

للمسيحيين الأوربيين عذرهم فى فصل دينهم عن المجتمع والدولة لسببين رئيسين : أهونهما : تلك الآثام التى اقترفها رجال دينهم باسم الدين ، والتشريعات التى اشترعوها من عند أنفسهم ، وجعلوها مقدسة قداسة الوحى . والمسيحية ، فى نصوصها ، وروحها بريئة من كل ظلم واستبداد .

وأكبر السببين ، فى عزل الدين عن المجتمع : طبيعة المسيحية ذاتها ، ونصوصها الداعية إلى ذلك فى صراحة لا تحتمل التأويل ، وأيضاً نصوصها الداعية إلى مجافاة العقل ، والعلم : جاء فى التوراة : بالحكمة الكثيرة كرب عظيم ، ومن يكثر الحكمة يكثر حزنه . وفيها أيضاً « حكمة العالم جهل » . وفى متى : ٢٢ « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » . ثم يأتى من بعد ذلك النصوص ، فى نشأة الكون وغيرها ، التى قطع العلم بنقيضها .. لكل ذلك ، وليس لمجرد فساد رجال الدين ، وإفسادهم السياسة ورجالها ، كانت الدعوة عندهم إلى فصل الدين عن الدولة نتيجة طبيعية ومنطقية ، وكان هذا الفصل منطلقاً لحضارتهم فماذا فى الإسلام من ذلك ؟

ماذا يفعل المسلم بنصوص كتابه قطعية الثبوت والدلالة فى تنظيم المجتمع ، والمال والاقتصاد ، والحكم والسياسة ، إن المسيحى لا يجد حرجاً من دينه عندما يفصل بين الدين والسياسة فيعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله ولكن المسلم يقع فى الحرج كله عندما يعطى قيصر مالم يعطه الله ، وعندما يتعارض ما لقيصر وماالله ، وعندما يعطل قيصر ما أمر الله

بإقامته ، وعندما يقطع قيصر ما أمر الله به أن يوصل ..

وهنا موطن الخلاف ، ولا نوافق على رفع الخلاف بنهج غير إسلامى ، فمقولة : **لا سياسة فى الدين ، ولا دين فى السياسة ــ مقولة غير إسلامية** ، وهى بمثابة جعل موضوع الحوار دليلاً ، إذ هى تجعل المدلول دليلاً ، وهى مصادرة يأباها العقل ، وإذا جرى الحوار على هذا النهج فلن ينتهى إلى معلم واضح ، ولن يزيد المختلفين إلا خلفاً وشقاقاً .

ولو التقت الكلمة على احترام جميع نصوص الإسلام ، والرغبة الأكيدة الصادقة ، فى العمل بها لتقاربت الاتجاهات ، وأمكن النظر فى (ترتيب الأولويات) والعمل على تنفيذ الممكن ، الأول فالأول ، إلى أن يوفق الله ، ويتم البناء .

أما أن يراد إجراء الحوار على أساس (الإسلام المتمثل فى العبادات) دون الإسلام فى صورته الاجتماعية والدولية ، فهذا فرض إجبارى لموضوع الخلاف ومثله لا يأتى بخير . ومن عجب أن أصحابه يفرضونه بالقوة ، وهى ميسورة لهم ، فى الوقت الذي يعيبون فيه على أصحاب الاتجاه المتكامل أنهم يحاولون فرض رأيهم بالقوة على عجزهم وحصارهم !!

فأيهما أقدر على فرض الرأى ؟ وأيهما أقدر على تسخير الكلمة له ؟ وأيهما فعل ذلك ؟

مؤتمر العلماء

٢٢ ـ عشية ٢٣ من جمادى الأولى سنة ١٤٠٩ ـ ١ / ١ / ١٩٨٩ عقد بالجامع الأزهر مؤتمر من ثمانية من كبار العلماء ، وحضره من الجمهور خمسة آلاف ، وأذاعت وقائعه الإذاعات الحكومية ، ومن هؤلاء العلماء من مُقامه فى غير مصر ، وأصدر المؤتمر بياناً برأيه فى مسألتين : تكفير المجتمع ، وتغيير المنكر باليد . وقضى فى الأولى برفض تكفير من يقول : لا إله إلا الله ، وفى الثانية بأن التغيير باليد من حق ولي الأمر ، وللفرد فى حدود ولايته .

وسبق البيان ، ولحقه ، تعليق من بعض علمائه ، أعلنوا فيه : أنهم ليسوا علماء سلطة ، واستنكروا أن نكفر مصر التى ردت الصليبيين والتتار ـ وأن من أنكر على الله حكماً كفر ، وأن حكامنا لا ينكرون ـ وأن حقيقة الإيمان فى القلب ، ومن زعم كفر أحد نقول له ما قاله رسول الله ﷺ : هلا شققت عن قلبه ؟! وطالبوا بالانتظار بتطبيق الشريعة حتى نحقق الاكتفاء الذاتى ؛ لأنه لا يمكن أن تكون كلمتنا من الرؤوس ، حتى نكون لقمتنا من الفؤوس . وكرروا الاستشهاد بقول الله ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن** ﴾ ـ كما كرروا وصف الشباب بالتطرف ـ وقالوا : إن مسألتى الإيمان والكفر ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر اتخذتا اليوم مطية لأغراض لا ترتفع إلى السماء ، بل تهبط إلى حضيض الأرض .

٢٣ ــ وههنا طائفة من الأسئلة تناقلها الناس بعد إصدار بيان العلماء ، وإذاعة المؤتمر . أسئلة تمليها ملابسات المؤتمر ، وأسئلة يمليها لسان حال الشباب ، وأخرى يمليها البحث الموضوعى :

أما التى تمليها ملابسات المؤتمر :

ــ كيف تم المؤتمر فى ظل الأحكام العرفية ؟ لقد أذن له قطعاً . فهل أذن له وأولو الأمر لا يعلمون قوله ؟ وهل كان يؤذن له لو كانت كلمته على غير هوى السلطة ؟

ــ كيف وجد خمسة الآلاف الذين حضروه ؟ وكيف أعدت له الإذاعة ؟ وكيف كان من أعضائه غير المقيم فى مصر ؟

ــ كان فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى ، فى كلمته التى قدم بها البيان ، منفعلاً غاية انفعاله ، حتى إنه أخطأ فى النحو أخطاء لا تخفى على مثله فى علمه وتمكنه ، بل لا تخفى على صغار تلاميذه ! والموقف موقف علم ، وتقرير لحقائق إسلامية ، وهو ما يستوجب الحياد ، وقد قال ﷺ : « لا يحكم أحدكم بين اثنين وهو غضبان » وترجم له البخارى بقوله : باب هل يقضى القاضى ، أو يفتى المفتى وهو غضبان ؟ وقد ألحق العلماء بالغضب كل ما من شأنه أن يشوش الفكر ، ويشغل القلب !! فانفعال الشيخ يلقى ظلال الشك علي الحالة النفسية ، والفكرية التي درست قضايا البيان فى جوها مما يجعل التردد فى قبوله مشروعاً عقلاً وشرعاً .

ـ ذكر فضيلة الشيخ الشعراوى فى مقدمته من تاريخ مصر فى رد التتار وغيرهم ما يستنكر معه القول بالكفر . وذاك شىء لا علاقة له بموضوع البيان ، فهو شىء تاريخى ، يبيح للمخالفين أن يذكروا أشياء ، لا من التاريخ البعيد ، ولكن من التاريخ القريب ، الذى مازالت بقياه ، ومازال (بعضهم) على دربه : فمصر التى ردت الصليبيين والتتار ، فــى الماضــى ، هى مصر التى فاوضت اليهود فى أيام الجمع ، ووقت صلاتها ، مع امتناع اليهود عن المفاوضــات يوم السبت ! وهذا أمر معلوم ، ذكره أحد أعضاء المؤتمر فى بعض كتبه ! ومصر التى ردت الصليبيين والتتار هى النتى تتلكأ فى إقرار التشريعات الإسلامية التى تم تقنينها .

ولعل أهم هذه الملابسات أن القضيتين الأساسيتين فى بيان المؤتمر : الإيمان والتكفير ، وتغيير المنكر ، قد كانتا ضمن كلمة الدولة فى احتفالها بمناسبة ذكرى مولد الرسـول ﷺ ! فهل كان اتفاق بيان المؤتمر وما كان فى كلمة الدولة توارد خواطر ؟ أو كان عن اتفاق مطلوب ؟

الأسئلة التى يمليها لسان حال الناس والشباب خاصة :

وهناك طائفة من الأسئلة ترددها الألسنة ، بعضها يبعث التعجب ، وبعضها يثير الأسى ، وبعضها يناقض بعضاً آخر :

قال فضيلة الشيخ الشعراوى : إنه ليس من علماء السلطة وإنه الوحيد الذى رفض قراراً جمهورياً ، وقال الشيخ الغزالى : إنه ليس من علماء السلطة ولا من علماء الشرطة . والناس يتساءلون : كيف حال

علماء لا يكون فيهم سوى واحد فقط الذى يرد قراراً للسلطة ؟ وكيف خلصت للجنة البيان حريتهم وعدالة كلمتهم وفيهم وزير أوقاف سابق ، كان أحد صناع قانون الأحوال الشخصية الذى لفّقت أحكامه (وطبخت) بنوده لإرضاء (امرأة) كانت تتقدم شيخ الأزهر ، الذى رضى لنفسه ذلك ، وكما رضى أن يكون فى استقبال (بيجن) عند زيارته الرسمية لمصر ! فإذا كان الأشياخ قد حرصوا على إعلان استقلالهم عن السلطة ، فكيف رضوا أن يشركهم شيخ هذه بعض سوابقه . مع تجاوزنا عن شيخ آخر : مد (السادات) عمله ، مديراً لجامعة الأزهر ، سنتين ، وكان المختار للصلاة على جنازته !!

أليس مفهوم تبرئتهم أنفسهم من السلطة ، ومنطوق حضور اثنين من علماء ، ذاك وصفهم ـ دليلاً على أن المؤتمر ، وبيانه ، من صنع السلطة ؟!

هذا البيان سبقه بيان من (شيخ الأزهر) يفتقد المقومات الأساسية ، التى يفرضها الإسلام فى البيان العلمى :

فإنه ـ بنص بيانه ـ قد أخذ معلوماته من صحف السلطة ! وهو لم يسمع من المتهمين ، كما أخذ من لسان خصومهم ! وجعل ذوى السلطة ـ الخصوم ـ هم أولى الأمر فى قوله تعالى (وأولى الأمر منكم) فهل ردّ أولو الأمر هؤلاءالأمر المتنازع فيه إلى الله ورسوله ، كما أمرت الآية نفسها ؟ وليس المتنازع فيه ـ فى الأصل ـ التكفير والمنكر ، إنما هو الحكم بما أنزل الله !

هل يعلم شيخ الأزهر أن بياناته يأخذها الناس مأخذ الريبة ، وبياناته هو بالأخص ، منذ بيانه ــ وهو مفتى الجمهورية ــ فى محاكمة (جماعة التكفير) . وهنا نذكر بالفضل ، والدعاء بالمثوبة والمغفرة لشيخ الأزهر الراحل المرحوم الشيخ عبد الحليم محمود ، الذى لم يوافق على قانون الأحوال الشخصية ، الذى (طبخه) الشيخ النمر ، فيما بعد ، ولم يصدر ذلك القانون حياة الشيخ عبد الحليم . كما نذكر بالفضل وذاك الدعاء ، للشيخ ، الذي طلبت إليه المحكمة العسكرية التى حاكمت جماعة التكفير أن يصدر بياناً ضد تلك الجماعة ، فأبى حتى يطالع على القضية . ولما ضمنت المحكمة حكمها وحيثياته لوما للأزهر ، كتب الشيخ عبد الحليم بياناً للرد على المحكمة ، وأبت الصحف نشره ، فبعث به إلى مجلة الاعتصام ، وهى الوحيدة التى نشرته .

لشتان مابين اليزيدين فى النـدى
يزيد سليم ، والأغر ابن حاتم
وكنت أرى زيداً ، كما قيل ، سيداً
إذا أنـه عبـد القـفا واللهـازم

وعلماؤنـا يعلمون كيـف كـان السلف ينظـرون إلـى مـن يعمـل (للسلطة) وكيف أن عمله ذاك كان يستنزل درجته وإن كان ثقة صدوقاً : قال ابن الصلاح ، فى مقدمته : قال يحيى بن معين : أجود الأسانيد : الأعمش ، عن إبراهيـم ، عـن علقمـة ، عن عبيد الله قال

الإمام البلقينى ، فى محاسن الاصطلاح : قال إنسان ليحيى ، لما قال ذلك : الأعمش مثل الزهرى . فقال : برئت من الأعمش أن يكون مثل الزهرى ، يرى العرض والإجازة ، وكان يعمل لبنى أمية . وذكر الأعمش ، فقال : فقير صبور ، مجانب للسلطان .

فإذا كان سلفنا قد نزلوا بمنزلة الثقة الصدوق لعمله للسلطان ، فكيف بمن أصدر البيانات على غير توثيق للرواية ، ويأمر بطاعة من يخالف حكم الله ورسوله ، ويحكم على من لم يلقه ، وقد قال الرسول ﷺ لمن أراد أن يشهد : « أرأيت الشمس ؟ علي مثلها فاشهد » .

ـ قال فضيلة الشيخ الشعراوى : إن قضيتى الإيمان والكفر ، ومقاومة المنكر اتخذتا وسيلة لأغراض لا ترتفع إلى السماء ، بل تهبط إلي حضيض الأرض ! ونحن نسأل فضيلته : من أين له العلم بالمقاصد والغايات ؟ وأصحاب هذه الدعوة لم يبلغوا غايتهم ، ولم يعلنوا إلا أنهم يريدون أن يحكم الشرع ، ولم يجدوا أمام أعينهم إلا معاندة لهذه الغاية تغيظ المؤمن ، وتخرج الحليم عن حلمه ، هذا مع سوء الحالة الاجتماعية ـ فى عمومها ـ مع إفراط الغنى فى جانب ، وإفراط الحاجة والمسكنة فى جانب أكثر الشباب ، مع عيون الرصد ، التى لا تغفل عنهم ، وأصحاب الفسق والفجور آمنون . ومن كان من الشباب على دين أقصى عن الوظائف ، وعومل معاملة المنبوذين ...

ـ مصطلح (التطرف) الذى تردده السلطة ، ويردده العلماء ـ من الذى ابتدعه ؟ يقول الفقيه المعاصر ، أستاذ علم الاجتماع ، بجامعة

محمد الخامس إدريس الكتاني : إذا شئنا أن نتعمق فى تحليل ما سمى (بالتطرف الدينى) فعلينا أن نتساءل أولاً : من الذى أطلق هذا المصطلح ؟ وعلى من أطلق بالذات ؟ وماهى الصفات المحددة لمفهوم التطرف ؟ وما هو الهدف الخفى من إطلاقه ؟ والخبراء المتتبعون لسير الصراع (بين العرب والمسلمين وبين الاستعمار والهيمنة الغربية) لا يختلفون فى الإجابة عن هذه الأسئلة . فالأجهزة الاستعمارية الغربية ، التى تشرف على توجيه الإعلام الغربى ، ووضع الصيغ والمصطلحات النفسية والاجتماعية الملائمة لمخططاتها السياسية فى الوطن العربى ، هى التى أطلقت عبارة (التطرف الدينى) .... أ . هـ .

إذا كان الأمر كذلك فكيف ساغ لعلمائنا ، وكتابنا ، وذوى الشأن فينا أن ينساقوا وراء مخططات المستعمرين ؟

إن الصحوة الإسلامية فى العالم الإسلامى كله ، تواجه بحركة استشراقية تبشيرية ، استطاعت تنصير الملايين فى آسيا وأفريقيا . وإن موقف ذوى السلطة منا ، من هذه الصحوة معين لتلك الحركة الغربية ! فهل يقبل أولو الأمر منا أن يكونوا عوناً على الإسلام ؟! وهل يقبلون أن يغالوا فى هذا العون ، حتى يضطهد كل من له صلة بالدعوة ، حتى يكون مجرد إطلاق اللحية ، أو تنقّب الفتيات سبباً كافياً للاضطهاد ، أو ــ على الأقل ــ للمضايقات ! وفى سبيل بلوغ السلطة لأهدافها فى هذا التعاون مع غرض الغرب يتم الاعتقال العشوائى ويعذب المعتقلون بكل ما يهدر الكرامة ، ويستبيح الحرمة ، مع ما يعلمه علماؤنا من حديث الرسول ﷺ من أن الله أوحى إلى نبى من الأنبياء ، قرصته نملة ، فأمر

بقرية النمل فأحرقت ـ فأوحى الله إليه : أفى أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح ؟!!

فلماذا لم يأتمر علماؤنا لجدب هذا التطرف ؟ ثم ألم يعلموا كيف نشأت فكرة التكفير ؟ إنها ثمرة هذا التسلط السلطوى ، والقسوة البالغة فى معاملة المعتقلين ، بعد الاعتقالات العشوائية ، وبعد زعم السلطة أن زمان (زوار الليل) قد مضى ، وقام رأس السلطة بتمثيلية هدم المعتقلات ؟

كيف لم يحرك ذلك ، بل بعض ذلك علماءنا ؟

ـ وإذا كان علماؤنا قد ائتمروا لينقضوا آراء (المتطرفين الدينيين) فلماذا لم يأتمروا لنقض (العلمانيين) الذين عابوا القرآن ، والسنة ، والصحابة ، وأئمة الإسلام ، وتاريخ الإسلام ، ودول الإسلام ، وحضارة الإسلام .. ولم يدعوا شيئاً له صلة بالإسلام ، ولو على أدنى درجة ، إلا أعملوا فيه معاول الهدم ، والنقض . وكتبهم ، ومقالاتهم وندواتهم فى ذلك معروفة ، ومنهم من يقيم الصلات ببعض دول الغرب الكارهة ليقظة المسلمين . فمن العجيب المثير للأسى أن هؤلاء الذين يقررون (أنه لا سبيل إلى مواجهة الصحوة الإسلامية إلا بمهاجمة الإسلاميين فى منطلقاتهم الأساسية) وعلى أساس منهجهم هذا هاجموا القرآن ، والسنة ، بل وشخص الرسول !! فماذا يبتغى ذوو السلطة فينا من المسلمين إزاء هذا (التطرف السلطوى والتطرف الفكرى) ؟

هذا فى الوقت الذى يُحرّم فيه تكوين الأحزاب أو الجماعات

الدينية ولو أنه أبيح تكوين (الجماعة الدينية) لوجد الشباب متنفساً مشروعاً يفرغون فيه شعورهم المكبوت . وإنه لمن دواعى تأجج شعور الكراهية عند الشباب أنهم لا يجدون فى بلدهم المنعوت بأنه بلد الأزهر ، وحامى الإسلام ـ ما يجدونه فى إسرائيل ، التى قامت بالعقيدة ، وما فى دول الغرب من الأحزاب المسيحية ، وبعضها متربع علي كراسى السلطة .

إن (التطرف اللاديني) المتمثل فى :

ـ تقليد الغرب فى مفهوم الدين .

ـ وتقليد الغرب فى عزل الدين عن المجتمع والسياسة .

ـ وعدم تطبيق الشريعة .

ـ واضطهاد من له صلة عملية بالإسلام .

ـ والقسوة فى معاملة المتعقلين الدينيين .

ـ واحتضان (العلمانية) .

ـ وإسفاف العلمانيين فى تجريح الإسلام والإسلاميين .

هذا التطرف في مواجهة الإسلام ، ورغبات الإسلاميين هو المسئول الأول عن (التطرف المقابل) . وإذا كان « من المعروف فى قواعد علم الاجتماع أنه لا يمكن تفسير حادث وقع فى مكان معين إلا بحادث آخر وقع فى جهة أخرى من المكان » كان علينا ـ مع هذه الحقيقة العلمية ـ أن نعالج الظاهرة بإزالة أسبابها . فإن الأسلوب العملى

لمنع الجريمة يتركز على منع أسبابها وعواملها .

وقد فشلت جميع أسباب العلاج القائمة عل الردع والزجر حتى الآن ، ولذلك فإن كل محاولة لعلاج (العنف السياسى) بأسلوب الوعظ والإرشاد الدينى ، مع استمرار الأسباب والعوامل الدافعة إليه سيكون مآلها الفشل أيضاً[1] فإذا كنا جادين ـ حقاً ـ فى معالجة ذلك العنف فعلى السلطة :

ـ أن تظهر المفهوم الصحيح للإسلام .

ـ وأن تبدأ فى إقامة الشريعة .

ـ وأن تقلع عن (العنف اللادينى) وعن التطرف عن الدين .

ـ وأن تقاوم هذا التفاوت الاجتماعى الذى يزيد على مر الأيام .

وأن تطلق حرية الجماعات الدينية فى التجمع العلنى .

ـ وأن تأخذ باستقلالها المنقذ لها من التبعية الخارجية لهذه القوة ، أو تلك . وهنا سؤال يمليه أسلوب العنف اللادينى : ما رأى العلماء فى اقتحام المسجد بحجة تسميته (وكراً) ؟ هل تصح تسمية المسجد وكراً ؟ وهل هذه التسمية تغير من حرمته ؟ ما الفرق بين هذا الاقتحام ودخول جنود نابليون مسجد الجامع الأهرالذى مازال التاريخ يردده على أنه أحد جرائم نابليون ؟

---

(١) د . إدريس الكتانى . أستاذ علم الإجرام بجامعة محمد الخامس ـ الرباط .

ـ ومن أهم الأسئلة التى يتهامس بها الناس ، تعقيباً على قول الشيخ الشعراوى : إن حكامنا لم يردوا حكماً لله !! مع أن هذا تبرع من الشيخ كان الأجدر به أن يطلب منهم أن يعلنوه عن أنفسهم ، لتطمئن القلوب، وبودنا أن يكون حكامنا على أعلى درجة من الإيمان ؛ ولذلك نودّ منهم ، ومن العلماء أن يوضحوا لنا : هل يتفق الإيمان ، على درجة ما ، مع مسلسل الوقائع الآتية ، التى بدأت من أساتذة ذوى السلطة القائمين :

ـ إهانة المصحف فى المعتقلات . وأودّ ألا يحاول أحد معى إنكار ذلك فما تشغلنى هذه المحاولة ﴿ **ولا ينبئك مثل خبير** ﴾ .

ـ فى اجتماع مغلق ـ بمحافظة الدقهلية ـ قال عبد المحسن أبو النور : الناس طلعوا إلى القمر ، وأنتم مازلتم تذهبون إلى الجوامع (تتفألسوا) !

ـ عندما شاع الكلام عن تشريع منع الخمر ، ذهب صاحب مصنع بيرة ينوى إحداث توسعات ـ إلى سيد مرعى يسأله : هل صحيح ما يقال عن الاتجاه إلى تحريم الخمور ، ليمتنع عن إقامة التوسعات ؟ فقال له : توسع ما شئت ، هذا كلام جرايد !! وقد كان !! والحديث الشريف يقول : مدمن الخمر كعابد الوثن .

ـ كانت نصوص (الميثاق) مقدسة ، حتى قال محافظ أسيوط ، إذ ذاك ، عن الميثاق : لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه !! وكوفىء بنقله محافظاً للقاهرة .

ـ كانت لى محاضرة فى كلية الحقوق بجامعة المنصورة . عقبها قال لى بعض الطلاب : إن الشيخ الغزالى قال لهم : إن عبد الناصر قال : محمد عمل إيه ؟! وأسررتها فى نفسى إلى أن التقيت بالشيخ فى مجمع الإيمان بالمنصورة ، وسألته عن صحة ما أخبرنى به الطلاب ، فقال لى : قال عبد الناصر ، وهو يحرك قلماً بين أصابعه : محمد عمل إيه ؟!

ـ هذه الدعوة الرسمية لإقامة تمثالين للرئيسين السابقين ، نود أن نعرف من علمائنا الرأى فيها ؟ ولماذا لم نسمع هذا الرأى إلى الآن ؟ وهذه الدعوة للتبرع للتماثيل مع تلك الأزمة الخانقة ـ سؤال آخر !

ـ ما رأى علمائنا فى التحايل المكرور على قوله تعالى ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ ليخرجوها عن عمومها ، فيجعلوها خاصة باليهود ، أو أن معناها : من ترك الحكم بكل ما أنزل ، أما من حكم بالبعض وترك البعض فليس بكافر !! والتأويل الأول يخرج النص عن عمومه ، الواضح فيه ، والتأويل الثانى لا يتم إلا بتغيير نظم الآية (١)

ـ العمل التنظيمى لفقه الشريعة ، الذى سمى : تقنين الشريعة ، قد تم منذ سنين ، فلماذا لم ينفذ حتى الآن ؟ هل يتم الإيمان لمقيم على المخالفة ؟

ـ قدم طلب لرئيس الدولة بالإفراج عن أعضاء الحزب الناصرى ،

(١) شرحت ذلك فى كتابى : حقائق الإسلام بين الجهل والجحود .

فلماذا لم يقدم مثله للإسلاميين ؟ إن هذا يذكرنا بما سمى (انتفاضة الحرامية) الذين دمروا ، وقتّلوا ، وانتهبوا ، ثم قدم بعضهم إلى محاكمة عادية ، بينما قدم أعضاء (جماعة التكفير والهجرة) إلى محكمة عسكرية لتحكم عليهم بالإعدام ، وينفّذ ، وهم لم يقتلوا إلا واحداً !!

ـ الدعوة إلى ترك أحكام القرآن ، المقطوع بها على مرّ الدهور ، كدعوة الصحفى : أحمد بهاء الدين إلى ترك حكم القرآن فى ميراث البنت الواحدة النصف ، وجعلها كالابن ـ هذه الدعوة مثل أخير لأمثلة كثيرة سابقة . ومما يدلك على أن هذا تخطيط مقصود أنه فى الشهر نفسه (ديسمبر سنة ١٩٨٨) الذى كتب فيه الأستاذ أحمد بهاء مقالاته ، فى الأهرام ، عن ميراث البنت ، كان الأستاذ حسين أحمد أمين يكتب عن أثر الجاهلية فى أحكام القرآن فى المواريث ! وذلك فى عدد مجلة العربى : ٣٦١ .

ـ قال ، فى مجلس الشعب ، أحد أعضاء الحزب الحاكم : الدمرداش العقالى : فى معرض إثباته حل فؤائد البنوك : وأنا أقول : هناك اجتهاد مع النص ! وهو قول يمثل اتجاهاً لتعطيل النصوص القاطعة ـ فبم يسمى علماؤنا هذا الاتجاه ؟!

ـ إن الله تعالى قال ﴿ **ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين علي أنفسهم بالكفر** ﴾ ولم يكن المشركون ينطقون بأنهم كفار ، ولكن أعمالهم كانت شاهدة عليهم به ، فجعل الله شهادة الأعمال شهادة أصحابها . والذى ذكرنا هنا من أعمال ذوى السلطة

ماالرأى فيه ، هل هو من أعمال الإيمان ؟ وقد شهد الله على قوم قالوا كلمة واحدة عن تخلفٍ واحد عن أمر رسول الله ، وقالوا : ﴿ **لو نعلم قتـالاً لاتبعناكم** ﴾ شهد الله عليهم بقـوله ﴿ **هم للكفر يومئذٍ أقرب منهم للإيمان** ﴾ **فما** شهادة علمائنا على من تكرر منه القول المخالف ، والفعل المعاند ؟ نحن نسأل ، **فهل من مجيب ؟**

لنكتف بهذا ، مما يتناقله الناس ، **ولننتقل إلى الأسئلة التى يمليها البحث الموضوعى :**

وهنا ملحوظة نودّ توضيحها من علمائنا : قال فضيلة شيخ الأزهر ، فى بيانه : إن الشريعة مطبقة ! وقال العلماء ، فى بيانهم ، لا نطالب بتطبيق الشريعة قبل أن يكون طعامنا من انتاجنا . ومعنى ذلك أنها غير مطبقة !

فأى القولين نأخذ ، وأيهما ندع ، وأيهما الحق ، وأيهما الباطـل ؟!

ـ هنا سؤال كاشف عن حقيقة الخلاف ، فعلماؤنا يقررون أن مجرد قول لا إله إلا الله ، يحقق الإيمان ، وليس لنا أن ننكر ذلك ، وإلا قلنا للمنكر : هلا شققت عن قلبه . وهذا تقرير بأن حقيقة الإيمان قلبية صرفة ، لا يمكن الاطلاع عليها . ولبيان الحق حول هذه القضية نسأل هذا السؤال الكاشف : **هل ما جاء به الرسول ﷺ هو : الإيمان فى مقابل الإسلام ، أو هو الإيمان فى مقابل الكفر ؟**

إن كان ما جاء به الرسول ، ودعا إليه هو الإيمان فى مقابل الإسلام ،

فالإيمان إذن ، أمر قلبي صرف ، إذ كان في مقابل الإسلام ، الذى هو الانقياد الظاهر . وإن كان ما جاء به الرسول ، ودعا إليه هو الانقياد الظاهر والباطن كان الإيمان أمراً يمكن الاطلاع عليه ، ويمكن اختباره ، كما قال الله ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن** ﴾ وكان من امتحانهن أن يستحلفن أنهنّ ما خرجن إلا حباً لله ورسوله ، ومن ثم كن يعطين العهد على المبايعة المنصوص عليها فى قوله تعالى ﴿ **يأيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم** ﴾ وهذا امتحان صريح فى أعمال الإيمان الباطنة والظاهرة .

وعندما سأل أبو ذر الرسول ﷺ عن الإيمان قرأ عليه آية البر من سورة البقرة : ١٧٧ ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس . أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون** ﴾ قال ابن القيم : وهذا صريح فى أن (الصدق) ــ أى فى دعوى الإيمان ــ بالأعمال الظاهرة والباطنة .

فهل تتم دعوى الإيمان للمقيم على المخالفة ؟ والمعطل لأحكام

الله ؟ والمتعدى حدود الله ؟

ـ قول العلماء فى بيانهم إن تغير المنكر باليد حق أولى الأمر . فما العمل إن كان أولوا الأمر هم الذين يرتكبون المنكر ؟

وقول البيان : أما تغيير المنكر من الأفراد . ففى حدود ولاية كل فرد ! ونحن مع تسليمنا أنه لا يزال منكر بما هو أشد منه .. نسأل : ما حدود هذه الولاية ؟ هل هى ممدودة إلى أن تشتمل كل المؤمنين ؛ لقوله تعالى ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض** ﴾ **أو هى مقصورة على أهله لقوله** ﴿ **قو أنفسكم وأهليكم ناراً** ﴾ أو هى أعم من هذا وذاك باعتباره وظيفة خاصة بهذه الأمة لقوله تعالى ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر** ... ﴾ . وهل إذا رأى المسلم مظلوماً ، ليس فى ولايته ، وهو قادر على أن ينصره ، فلم ينصره ، بهذه الحجة ، لا يكون آثماً ؟

فصل الخطاب

٢٤ ـ وفصل الخطاب ، فى موضوع تلك القضية المهمة ، فى كلمتين اثنتين ، كلمة إلهية مبينة واجب المسلمين نحو ما أنزل الله ، ومبينة مدى الحق فى موقف الإسلاميين ، وموقف خصومهم . وكلمة بشرية ، على لسان أحد كبار السلطة كاشفة عن معنى الإسلام عندهم . وبهما يتضح الحق ، ويتبين موضع الفتوى ، ومجال التوفيق :

أما الكلمة الإلهية فقوله تعالى : ﴿ **ومن الذين قالوا إنا نصارى**

أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون ﴾ المائدة : ١٤ . فالله تعالى عاقبهم بإلقاء العداوة والكراهية بينهم جزاء وفاقاً بتركهم نصيباً مما أنزل عليهم . وهذا شأننا ، فنحن ـ على أحسن الظنون ـ تركنا بعضاً مما أنزل الله ، فعاقبنا الله بهذه العداوة ؛ لأننا اتبعنا سنن من قبلنا شبراً بشبر ، ، وذراعاً بذراع ، ودخلنا جحرهم الخرب كما دخلوه[1] فحق علينا قول ربنا : ﴿ **فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء** ﴾ إذ لم نحذر ما حذرنا الله فى هذه الآية ، وفى قوله ﴿ **واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك** ﴾ المائدة : ٤٩ .

وعلاج ما نحن فيه مفهوم من الآيات ، فليس هو إصدار البيانات ، ولا هو الإتهام بالجهل ، ولا هو الإتهام بأن الدعوة اليوم تتخذ وسيلة لأغراض أرضية ، ولا هو الإضطهاد ، والقسوة على المعتقلين .. إنما هو ـ كما تصف الايات ـ أن نأخذ بالحظ الذى نسيناه مما ذكرنا الله ، ونعمل بجميع ما أنزل . عند ذلك تأتلف القلوب ، وتتحد الوجهات ، ويتوحد الهدف . ووحدة الوجهة والهدف ضرورة لكل أمة . لا ضير فى اختلاف الوسائل التى تتعدد بها الأحزاب ، ولكن كل الضير فى

---

(١) إشارة إلى الحديث الصحيح « لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب خرب لدخلتموه . قلنا من يا رسول الله . اليهود والنصارى ؟ قال : فمن إذن ؟ » وفى هذا الحديث بيان لبطلان زعم الزاعمين أن مثل قوله « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » خاص بأهل الكتاب ، وأن فعلنا فعلهم الذى نعاه عليهم يستوجب علينا ما حكم به عليهم !

تعدد الأهداف والوجهات . وهذا ما نحن مبتلون به : قوم رضوا بعض الشريعة وكرهوا بعضها وقوم يدعون إليها جميعها . قوم يتنادون بفصل الدين عن المجتمع والسياسة وقوم يقولون الإسلام دين ودولة : ولهذا صدق علينا قول الله ﴿ **فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء** ﴾ ولوتوحدت أغراضنا لرفع الله عنا هذا العقاب . فلتتوحد أغراضنا على ما يفرضه علينا ديننا ، ولتتعدد وسائلنا إلى هذا الهدف الموحد ، إن كنا حقاً نريد أن نرفع الخلاف ، ونعالج الداء . فهذا هو الـدواء .

هذه هى الكلمة الإلهية ، الكاشفة عن الداء والدواء .

أما الكلمة الإنسانية فهى كلمة السيد اللواء بهاء الدين ابراهيم ؛ النائب الأول لوزير الداخلية فى ندوة السلام ، التى عقدتها نقابة الأطباء فى ٤ جمادى الآخرة سنة ١٤٠٩ . ١٢/ ١ / ٨٩ ، والمنشورة فى الجريدة الحكومية : الأهرام . حيث قال : نحن لسنا ضد الإسلام المتمثل فى العبادات ، والصيام ، والزكاة ، وعمل الخيـر .

وهى كلمة دقيقة ، شارحة لمفهوم الإسلام عند السلطة ، ذلك الفهم المطابق لفهم الغرب للدين ، ذلك الفهم الذى يحصر الإسلام في ضمير الفرد وعلاقاته الشخصية بالله ، ذك الفهم الذى يقطع الإسلام عن المجتمع ، وعن الدولة . ذلك الفهم الموضح لموضوع الخلاف : فالسلطة تريد الإسلام على نحو ما يريد الغرب له ، ويكرهون من الإسلام ما يكره الغرب منه . وما إطلاقهم لمصطلح (التطرف الدينى) إلا لتخويف حكامنا ، وتحريضهم إياهم على الإسلاميين ، وإلا لتخويف

الغربيين من الإسلاميين ، حتى لا يعود للإسلام تميزه الخاص ، فى إنهاض المسلمين ، وتوحيد كلمتهم[1] ! بيان العلماء صدر أولاً ، وكلمة مسئول الداخلية بعده باثنى عشر يوماً . بيان العلماء مهد له فضيلة الشيخ الشعراوى بأن حكامنا لا يرفضون حكماً للدين ، وبأن من يرفض حكماً للدين ناقض لقوله : لا إله إلا الله ، فالكفر الامتناع عن قول لا إله إلا الله ، أو رفض حكم الله ولو مع قول كلمة التوحيد ـ حسنٌ !

فما قول العلماء ـ إذن ـ فى كلمة المسئول الكبير ؟ تلك الكلمة القابلة للإسلام عبادة وعمل خير بمنطوقها ، الرافضة له حكما بل أحكاماً بمفهومها . ألا يحمل بعلمائنا أن يستوضحوا عن ذلك المفهوم وعن موقف السلطة منه ، وعن موقف السلطة منه ، حتى تفصح السلطة عن رأيها فى الإسلام حكماً ، كما أفصحت عن رأيها فيه عبادة ، ولا يتبرع علماؤنا بالإفصاح عن السلطة . لكأنى بكلمة مسئول الداخلية ردٌ على ما تبرع به العلماء !!

كلمة يفرضها الإسلام

٢٥ ـ وههنا كلمة يفرضها الإسلام ، ويوجبها إخاء الإيمان ، كلمة أكتبها بدافع الحرص على دينى وأهله ، والحب لبلدى وأهله . مع رجاء أتوجه به إليهم أن يأخذوها بهذه البواعث . كلمة لو تمت لصلح الحال ، وعلت أمتنا بها إلى المستوى الحضارى الإنسانى الذى رفع الإسلام المسلمين إليه .

---

(١) كما أوضح ذلك د . إدريس الكتانى فى مجلة العربى ٢٨٠ : ٤٦

تلك ، أن ارفعوا عن مخالفيكم التعذيب والإضطهاد ، واخشوا الله فى المحكومين لكم ، وراعوا دينه فيهم ، رعاية لمصيركم ، ورجوعكم إلى الله ؛ فإن نفس المؤمن عظيمة الحرمة عند الله ، وقد كان ابن عمر ، عندما يرى الكعبة يقول : ما أعظم حرمتك ، ولنفس المؤمن أعظم حرمة منك » والله تعالى يقول : (**ولقد كرمنا بنى آدم**) ويقول : ﴿ **ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها ، وغضب الله عليه ، ولعنه ، وأعد له عذاباً عظيماً** ﴾ ٤ : ٩٣ وروى البخارى عن ابن عباس أنه كان لا يرى توبة لقاتل المؤمن بغير حق ، وأنه مخلد فى النار أبداً . **إن كل سوطٍ ظالم يصب على مواطن يهدم لبنة من بناء الأمة والدولة .**

وقد جاء الوعيد الشديد فيمن يعذب نفسه طاعة لأميره : فقد جاء فى الصحيحين ، عن على رضى الله عنه قال : استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأنصار على سرية ، بعثهم ، وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا . قال : فأغضبوه فى شيء فقال : اجمعوا لى حطباً ، فجمعوا ، فقال : أوقدوا ناراً ، فأوقدوا . ثم قال : ألم يأمركم رسول الله ﷺ أن تسمعوا لى وتطيعوا ؟ قالوا : بلى . قال : فادخلوها ! قال : فنظر بعضهم إلى بعض ، وقالوا : إنما فررنا إلى رسول الله ﷺ من النار فسكن غضبه ، وطفئت النار . فلما قدموا على رسول الله ﷺ ذكروا ذلك له ، فقال : لو دخلوها ما خرجوا منها ، إنما الطاعة فى المعروف » . وههنا أمران : الأول : هؤلاء قوم كانوا سيقتلون أنفسهم بإلقائها فى النار ، من غير تفريق بين ما هو طاعة لله ورسوله ، وما هو طاعة مخالفة لطاعة الله

ورسوله ، فكانوا مقدمين على ما هو محرم عليهم ، ولا تسوغ طاعة ولي الأمر فيه ؛ لأنه طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ؛ لأنها طاعة هى معصية لله ورسوله ، فكانت سبباً لعقوبتهم بخلودهم فى النار .

الثاني : إذا كان هذا حكم من عذب نفسه طاعة لولى الأمر فكيف من عذب مسلماً لا يجوز تعذيبه طاعة لولى الأمر ؟! فإذا كان الصحابة لو دخلوا هذه النار لما خرجوا منها ، مع قصدهم طاعة الله ورسوله بذلك الدخول ، فكيف بمن حمله على مالا يجوز من الطاعة ، الرغبة والرهبة الدنيوية ؟ إنه لن ينفع هؤلاء ، عند الله ، قولهم : إنما نطيع أمر رؤسائنا ؛ إن الله تعالى يقول : ﴿ **يوم تقلب وجههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا . وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً** ﴾ .

وروى الإمام أحمد : من رأى مظلوماً وهو قادر على أن ينصره فلم ينصره أذله الله على رءوس الخلائق يوم القيامة .

وروى الطحاوى عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال : أمر بعبد من عباد الله أن يضرب ، فى قبره مائة جلدة ، فلم يزل يسأل الله ويدعوه ، حتى صارت واحدة ، فامتلأ قبره عليه نار ، فلما ارتفع عنه أفاق ، فقال : علام جلدتمونى ؟ قالوا : إنك صليت صلاة بغير طهور ، ومررت على مظلوم فلم تنصره .

٢٦ ــ هذا المبدأ الإسلامى : لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، مبدأ حضارى ، يعلو بمنزلة الإنسان ، ويحترم عقله ، ويضع حداً

محدوداً لعلاقة الرئيس بمرءوسيه ، ويرد استبداد المستبد ، ويحقق (الديمقراطية) فى صورة إسلامية ، ويقضى على استبداد المستبدين باسم السلطة الموروثة ، والذين يستبدون بسلطة القهر والتزوير .

هذا المبدأ ، وتلك القاعدة الإسلامية ، التى تجعل لكلمة : (لا) مكانها على لسان الإنسان ، وترفع مكانتها فى حياته . إنها الكلمة التى بذلت الإنسانية ، فى سبيل الحصول عليها كثيراً من الدماء ، وأنفقت العديد من السنين ، حتى استقرت مبدأ ديمقراطياً يحقق الأمن والأمان ، ويرفع عن الناس ما يوضع عليهم من إصر وأغلال .

هذا المبدأ الإسلامى معلم حضارة يقى الكبير والصغير ويحمى الرئيس والمرءوس ، ويفتح للعاملين به طريق التفكر ، الذى هو أول خصائص الإنسان .

إنه القاعدة الإسلامية التى تجعل كلمة : (لا) فريضة مفروضة على المسلم يأثم بتركها ، ويهدر دينه بفراقها ، فيضيع إنسانيته ، ويغرى من فوقه بالإثم والعدوان ، ويظلم من دونه ويهضمه ، فيأثم ثلاثة آثام !

إن الخلاف عن أمر هذا المبدأ الإسلامى معلم تأخر ، وحطة كرامة . ومهما قيل فى تسويفه وتبريره فلن يكون إلا كذلك .

وبعد ، فليت علماءنا يعلمون أن بيانهم ذلك سوف يؤخذ ذريعة لطوفان من الطغيان ، ومزيد من العدوان . ولست أقول ذلك من باب الحدس أو الظنون ، وإنما هو قول تجاريب ، ومرة أخرى ﴿ **ولا ينبئك**

مثل خبير ﴾ . وليت الحسرة التى ستأخذهم وهم يخصّمون تغنى عنهم شيئاً ، أو تدفع عنهم عاقبة بيانهم الذى يحتاج إلى بيان .

ولنعد إلى دروسنا البدرية ؛ فلعل فيها كشفاً من تلك الغمة ، ولنأخذ من دروسها ما يتصل بذلكم المبدأ العظيم الذى قرر كلمة (لا) .

الشورى

٢٧ ـ قررت قاعدة الإسلام : (لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق) ـ قررت كلمة (لا) وجعلتها معلماً من معالم إيمان المسلم ، وصدق عبوديته لله ، وتصديق ربوبيته .

ثم جاء مبدأ الشورى ليزيد مبدأ (لا) تقريراً ، وليصل جناحه ، وليتم شطره ؛ فمبدأ الشورى هو مبدأ لا ، ونعم . وبذا ، وبذلك يكمل نظام الأمة السياسى ، وتسلم لها هيئتها الإجتماعية والسياسية .

وكلمة (نعم) لا تحقق صدقها إلا بكلمة (لا) ، وكلمة (لا) لا يحقق جلالها إلا من يعرف لكلمة (نعم) موضعها . فكلمة (نعم) مرسلة مطلقة دليل على انعدام (الشخصية) أو ضعفها ، وعلى استبداد من تطلق له ، وعلوه ، وتكبره . وكلمة (لا) مطلقة مرسلة دليل علي العتو والنفور ، وعلي تعطيل التفكر والتدبر ! والاسترسال فى الموافقة ، كالاسترسال فى الرفض يهدم المجتمع ، ويقتل عقلانيته ، ويأتى علي حاضره ومستقبله ، ويمكن للاستبداد ، والفساد .

يأتي مبدأ الشورى فيشد للأمة يديها ، ويريش جناحيها ، ويعلمها متى يتقول : نعم ، ومتى تقول : لا ! فيتقرر في حياتها : النفى والإثبات.

ولأمر يراد قرر الإسلام أن كلمة التوحيد هى : لا إله إلا الله . وهى نفى ، وإثبات . وهما معاً حقيقة التوحيد ؛ إذ التوحيد ـ علي التحقيق ـ نفى وإثبات ، وفناء وبقاء ، وبراء وولاء : نفى للإلهية عن كل ما سوى الله ، وإثباتها لله . وفناء عن مرادك ومراد من شاركك فى العبودية ، وبقاء فى مراد الله ، وبراء من عبادة غير الله ، وولاء لله ﴿ **وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى ؛ فإنه سيهدين** ﴾ ٤٣ : ٢٦ ـ ٢٧ .

هذه هى حقيقة التوحيد الذى عليه المرسلون ، وأنزلت به الكتب ، وخلقت لأجله الخلقية ، وشرعت له الشرائع ، وقام عليه سوق الجنة ، وأسس عليه الخلق والأمر .

فالعجب من قوم هذه قاعدة دينهم ، وأساسه الذى إذا هدم أو ثلم ضاع منهم دينهم ، وضل عنهم إيمانهم ـ يثلمون دينهم ، ويضيعون إيمانهم بطاعة المخلوق ، وتعذيب المستضعفين . وحقاً إنه لخسران مبين لمن يبيع دينه لدنيا غيره :

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا　　　فلا دننا يبقى ولا ما نرقع !

وتأتى بدر فتقرر مبدأ الشورى فى صورتــه العمليــة ، لا فى

صورته النظرية ، التى كثيراً ما تتخذ شعاراً لا واقع له ، ومنطوقاً لفظياً لا مضمون فيه . تأتى الشورى درساً من دروس غزوة بدر ، لتصبح قاعدة من قواعد الحكم فى الإسلام ، وعزيمة من عزائم التكاليف : استشار الرسول ﷺ ، أصحابه فى لقاء الكفار ، فأجمعوا أمرهم على لقائهم .

ولما سار إلى لقائهم ، وعرس بالجيش دون بدر ، سأله الحباب بن المنذر ، أنزل هذا المكان بوحى أم برأيه ، فلما أخبره أنه عن رأيه ، أشار عليه بأن الرأى أن ينزل أدنى ماء من القوم ، ثم نفوّر ما عداه .. فقال له ، عليه الصلاة والسلام : لقد أشرت بالرأى ثم نزل جبريل . فقال للنبى : الرأى ما أشار إليه الحباب .

واستشارهم فى الأسارى ، وأخذ برأى الأكثرين ، بقبول الفداء . ونزل الوحى يلومهم ، إذ ﴿ **ماكان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض** ﴾ ومع هذا التقرير لشورى فرد ، واللوم على رأى الأكثرية ، تقررت الشورى فى تولى الحكم ، وفى تصريفه ، والأخذ الواجب برأى الأكثرين ، مهما كانت النتائج . واتباعاً لهذا الإلزام الواجب نزل الرسول ﷺ على رأى الأكثرية فى الخروج إلى أحد ، وكان رأيه هو التحصن بالمدينة ، وعزّز رأيه رؤياه ؛ إذ قد رأى فى منامه أنه أدخل يده فى درع حصينة ، وتأول ذلك : بأنها المدينة .

وأحد بعد بدر ، وفى بدر ليم علي رأى الأكثرية ، وبرغمه استشار يوم أحد ، وكان الرأى الأغلب للشباب فنزل على رأيهم . وبرغم هزيمتهم فى أحد ، بعد هذه المشورة ، وجسامة ما أصابهم ــ وكانت له

مندوحة بسبب ما أُصابهم من القرح لمخالفتهم عن أمره ـ برغم كل ذلك أنزل الله ﴿ **وشاورهم فى الأمر** ﴾ فتقررت الشورى على صورة لا تدع ثلمة للتراجع ، أو التأويل ، فلا عجب ـ بعد هذا ـ أن يخبر القرآن أن الشورى من صفات المؤمنين اللازمة لهم لزوم حقائق الإيمان الأولى : ﴿ **وأمرهم شورى بينهم** ﴾ ٤٢ : ٣٦ ـ ٣٩ .

٢٨ ـ ومن اللفتات البدرية الواعية ، ودروسها النافعة أمران :

أجدهما يزيد فى إيمان المؤمن ، والآخر يحفظ على الإنسان عزيمته : ذلك أن المؤمن بين ما تجب فيه الشورى ، وبين ما مجاله التسليم الإيمانى لله ورسوله : الأول ما لا وحى فيه ، فهذا شورى بين المسلمين ، لا يفضل فيه رأى رئيس رأى مرءوس ، وواجب الرئيس أن ينزل على رأى الأكثرية ، كما فعل الرسول . وبذلك تصبح الشورى منهجاً حقيقياً ، وليست أمراً (شكلياً) ولا شيئاً (تمثيلياً) تستكمل به زينة الحكم الظاهرة . وسيرة الرسول ﷺ فصل الخطاب فى هذه المسألة .

والثانى : مافيه وحى ، وما كان شأنه كذلك فالأمر فيه لماأنزل الله ، ليس لأحد أن يصدف عنه ، ولذلك لما نزل الرسول منزله الأول من بدر ، سأله الحباب : أهذا منزل أنزلكه الله ، ليس لنا أن نتقدم أو نتأخر ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة . فلما أخبره الرسول بأنه : الرأى ، والحرب ، والمكيدة ، قال له الحباب : إن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم .. !

(ليس بمنزل) نفى لرأى النبى ، وحكم عليه بغير الصلاح ،

وسلب للمراد منه (انهض بالناس) أمر مقابل لأمر الرسول الناس بالنزول فى هذا المكان ، مع إسناد المعرفة بكيفية كيد العدو . ومع كل ذلك أخذ الرسول برأى الخبير فى هذا الشأن ، والعليم به ولم يؤثر عن الرسول ﷺ فيما كان شأنه الرأى ، تردد فى النزول عن رأيه ، أو التأفف من معارضتهم ، أو ادعاء العصمة لما يرى .. وهذا مثل القيادة الديمقراطية ، فى صورتها المثلى ، وهذه سياسة الإسلام

ومن الناس اليوم من يريد أن يجعل أمور المسلمين كلها (رأيا) ليدع نصوص الشرع قطعية الثبوت ، قطعية الدلالة ، ويكره لها أن تكون حاكمة لأمورهم ، وقانوناً لحياتهم ، ويتعللون لقولهم بعلل يبتدعونها من عند أنفسهم ؛ لتنتهى بهم إلى مايريدون من ترك حكم الله ورسوله ، والإعراض عنه ، ويزينون ، لرأيهم ، بزينة من كلمات : العقل ــ العصر ــ الحضارة .. ويعيبون المسلمين بمثل : الجمود ــ الرجعية .. وما موقفهم ، على الحقيقة ، إلا كره للإسلام أن يحكم ويوجه ، وما هم ــ على التحقيق ــ إلا مقلدون ، يرددون دعاوى غير المسلمين الحاقدين على الإسلام !

هذا ما يحفظ علي المؤمن إيمانه ، أما ما يحفظ عليه عزمه ، ولا يحل عقده فهو : أن مافيه شورى ، مما لا وحى فيه ، إذا درسته الشورى وانتهت فيه إلى الرأى ، وبدأ التنفيذ ، بحسب الشورى ، لا يتردد فيه ، ولا يتراجع عنه ؛ فإن ذلك يحل العزم ، ويوهن القوة ويشعب الجمع ، ويزرع الجدل العقيم ، ولذلك لما أخذ الرسول برأى الحباب ، ونزل

بالمكان الذى أشار به ، ودفع الراية إلى مصعب بن عمير ، ووقف ينظم الصفوف ـ جاءه رجل فقال : يارسول الله ، إنى أرى أن تعلوا الوادى ، فإنى أرى ريحاً قد هاجت من أعلى الوادى ، وإنى أراها بعثت بنصرك ! فقال ﷺ : قد صققت صفوفى ، ووضعت رايتى ، فلا أغير ذلك .

وكذلك فعل يوم أحد ، لما أخذ برأيهم ولبس لبوس الحرب قال بعضهم لبعض : قد استكرهنا رسول الله ﷺ . وردّوا الأمر إليه ، فأبى عليهم وقال : قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم ، ولا ينبغى لنبى ، إذا لبس لأمته ، أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه .

ونلاحظ أن الرجل الذى أشار على الرسول بتغيير الموقع ، قد أسند رأيه ، وبناه علي (ظن) لا يشهد له واقع ولا عقل بينما الحباب قد قدم رأيه مستنداً إلى خبرته بالمكان ، وعلمه به فكان رأيه جديراً بالقبول ، جدارة الآخر بالرفض !

هذا مبدأ (الشورى) فى تقريره النظرى ، وتطبيقه العملى ، والتزام الرسول به ، فمن العجب بعد ذلك أن نرى من المسلمين من يقول : إن الشورى واجبة غير ملزمة !! ولست أدرى مثل هذا العبث فى شيء من شئون الإسلام ، ولست أدرى كيف ساغ لهم ذلك ، على مافيه من تنافر بين المقدمة والنتيجة ، فكيف تكون الشورى واجبة ، ثم تكون نتيجتها غير ملزمة ؟ وهل هذا إلا إقرار للمستبدين على استبدادهم ؟ وهل من فارق بين هذا الرأى ، وبين تلك الصورة المضحكة ، والتمثيلية الهزلية ، التى يؤدى أدوارها الطغاة وأعوانهم ،

والتى تتمثل فى مجالس للشعب والشورى لا تقول إلا ما يملي عليها ، ولا ترى إلا ما يرى سادتها وكبراؤها . وتلك نصوص الإسلام ، ووقائعه قاضية على هذا الرأى بالبطلان .

ولنواصل السير إلى هذا الدرس الإجتماعى ، الذى لو وعاه المسلمون لما كان فيهم اليوم جاهل أو أميّ .

محو الأمية

٢٩ ــ وذلك أن الرسول ﷺ عندما أخذ برأى أكثر الصحابة ، فى قبول الفداء من الأسرى ــ جعل من الفداء أن يقوم الأسير ، الذى يعرف القراءة والكتابة بتعليم عشرة غلمان ، من غلمان المدينة ، فإذا فعل كان ذلك فداءه .

فالعجب من نبى أمى يؤسس لأمته محاربة الأمية . والعجب أكثر من قائد تآمر عليه عدو خصم ، أجمعوا على كيده ، واجتمعوا على حربه ، ثم هو يطلقهم فى سبيل تعليم أبناء أتباعه ، وهم جيل المستقبل ، الذى يغلب أن يكون زمانهم غير زمانه ، لكنه يؤسس لدولة ، ويرسى لها قواعد البناء الدائم وأكثر العجب من رأس دولة ناشئة ، يعاديها كل من حولها وأهلها فى أشد الحاجة إلى المال ، وحالهم علي مابينه النبى ، فى بعض دعائه يومئذ : اللهم إنهم جياع فأطعمهم ، عراة فاكسهم .. ومع شدة هذه الحاجة يفضل تعليم الصبية ، وبناء مستقبل الدولة على جيل متعلم ، يكتب بالقلم ! وتلك سابقة تعلمتها الدنيا من ذلك النبي الأمي ، ولو سار المسلمون على هديها ، والتقطوا إشارتها لما كان فيهم

الله أعلم حيث يجعل رسالته

٣٠ ـ كان اختيار الله العرب للرسالة الخاتمة اختياراً للعنصر الأصلح لحمل هذا العبء الفادح ، والقول الثقيل ، والرسالة الشاقة وكان صرف هذه الرسالة ـ فى نزولها ـ عن غير العرب ، صرفاً لها عن الأمم التى فسدت فطرتها ، وفسدت عقولها ، بما ابتدعت من نحل ، وأبعدت فى التشقيق العقلىّ ، وبما أسفت فى تصورها لحقائق الكون والوجود . وفسدت طبيعتها ، ووهنت قواها بما غرقت فى النِّعمة ، وما استهواها من ترف ، وأذهب نخوتها من نعيم ، وما أذهب عزتها ، ومروءتها ، من استبعاد ملوكهم وسادتهم .

وبقيت على وجه الأرض أمة واحدة وحيدة ، كانت ـ علي ما بها من تفكك ، وبعض مرذول العادات ـ خير أمة لهـذه الرسالـة : ـ كان العرب أمة أمية ، فلم يكن لهم كتاب يدرسونه ، ويتبعون رسومه .

وكانوا جماعات لا تجمعها رابطة دينية ، ولا جامعة قومية ، ولم يكن لهم إمام يقتدون بهديه ، ويتبعون سننه .

ومع هذا الشتات المفرق ، والأمية الحاجبة ـ قد اهتدوا بفطرتهم إلى جوامع الكلم ، التى استخلصوها من تجاريب حياتهم وهم يصارعون ، فى جزيرتهم ، عوامل الفناء المحيطة بهم من كل صوب ، فكانت تجاربهم ، وحكمهم حكمة الحياة ، وتجاريب الممارسة العملية .

ولم تكن حكماً متلقنة من معلم ، ولا تجاريب أملاها كتاب ، لا يستشعرها الحس ، ولا يتملاها العقل ، ولا يفيض بها وجدان ! وبذلك كان العرب أقدر على فقه الحقائق الدينية ؛ لأنها فقه الفطرة السليمة .

وكان العرب ـ مع هذه الحكمة العملية ـ على خلق كتلك الحكمة . خلق استنبطوه من حياتهم ، وطبعتهم عليه تجاربهم ، وطبيعة بيئتهم : فكانت النجدة ، وحماية الذّمار ، ورعاية الجار ، وإكرام الضيف ، واسترخاص الحياة فى سبيل القيم .. كان كل ذلك مما أهلهم للرسالة الخاتمة ، ورشحهم لهذه القيادة العالمية ، وجعلهم أولى العالمين بها .

وكان العربى ـ فى جزيرته ـ أقوى تأهلاً ، وأوسع استعداداً للإيمان (بالمطلق) : فقد عودته بيئته النظرة اللانهائية ، فى آفاق السماء الممتدة ، وأقطار الأرض البعيدة ، فكان أجدر الناس بأن يدعى إلى الإيمان بالله ، الذى ليس كمثله شىء ، ولا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير ، وتلك كانت حجة الأعرابى لنفسه ، حينما استلقى ، فرأى السماء ، ونجومها ، فقال فى أسلوب استدلالى مسلّم المقدمات ، واضح النتيجة ، واحتجاج عقلىّ كبديهة الحس : البعرة تدل على البعير ، والأثر يدل على المسير ، فأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، وسماء ذات أبراج أفلا يدل ذلك على العليم الخبير ؟!! بلى !

وهكذا كان العربى ـ فى صحرائه ـ سليم الفطرة ، صائب

الفكرة ، ذكى العقل ، سليم الفهم .

٣١ ـ وكما كان العربى ـ فى صحرائه ـ مؤمناً ، ناظراً إلى اللانهائى ؛ مؤمناً (بالمطلق) ، مؤهلاً للإيمان الصحيح . كان ، كذلك ، مؤمناً بثبوت القيم ، ولهذا توارث تلك المكارم الأخلاقية ، وتمدح بها ، وعلم أن خير الصفات تلك السجايا غير المحدثة « إن الخلائق فاعلم شرها البدع » فاهتز لهذه المكارم ، فأعطى الجزيل ، وطرب لها فحمى ومنع ودافع ، وهذا هو سبب عفه ، أوجوده ، أو نصرته وحميته لأبيات من الشعر يسمعها ؛ لأنها تخاطبه بمقياس تلك القيم ، وتدعوه إلى ساحتها . وليس كما يفهم الأغبياء ، الذين يقولون : إن العود إلى الإسلام عود إلى قانون البيت من الشعر ، تترك به الحقوق ، أو يعفى به عن الجارم . إنما كانت أبيات الشعر هذه دعوة إلى قيم ثابتة ، ومكارم أخلاق متوارثة ، أنبتتها البيئة ، وأحكمتها التجارب ، وصفّاها الشرع . فكانت تلك الأبيات لهم بمثابة دروس الأخلاق فى زماننا تؤديها المدارس ، وتنميها (الجمعيات) ، وتنشرها الصحف ، وتقوم بها العبادات ، وكانت بمثابة ردّ القاضى موضوع القضية إلى الأصول الثابتة ، التى نشأ منها القانون . ولا يسخر من تلك الأبيات إلا من يستخف بتلك القيم . ولا حجة لنا ، ولا محاجة مع من يكون على تلك الحال .

* * *

٣٢ ـ لما أسر ـ فى بدر ـ النضر بن الحارث ، وقتله الرسول ﷺ أرسلت إليه أخته قُتَيلة بأبيات ، منها :

أمحمد ، ولأنت نسل نجيبة

في قومها ، والفحل فحل معرق

ما كان ضرك لو مننت ، وربما

منّ الفتى وهو المغيظ المحنق

والنضر أقرب من أخذت بزلة

وأحقهم ، إن كان عتق يعتق

قالوا : إن شعرها أكرم شعر موتورة [1] ، وأعفه وأكفه ، وأحلمه وهذه مكارم أخلاق . فقال ﷺ : لو سمعت هذا قبل أن أقتله ما قتلته وهذا ليس معناه الندم ، فإن قتل النضر ، وأمثالة كعقبة بن أبي معيط ، جزاء وفاق لما أجرمت جوارحهم ، وإن ما فعلوه يفوق في إجرامه ما يفعله من يأخذونهم اليوم باسم : مجرمي الحرب ، فقوله ﷺ ، لم يكن ندماً ، وإنما معناه : مقالة أخلاقها الكريمة بمثلها ، ومكافأة حسن شفاعتها ، وأدب استعطافها ، بالعفو عنه . وفي ذلك دروس عملية لحسن الطلب ، وحسن المقابلة ، بما لا يظلم أحداً ، ولا يهضم حقاً . والأمم اليوم تعرف حق رئيس الدولة في العفو عن المجرمين في حقوق الناس والمجتمع .

٣٣ ـ جناحان للخلق أقامهما محمد عليه الصلاة والسلام ، تتم بهما الأخلاق ، وتؤتي ثمارها المبادئ : الإعتراف بالجميل لصاحب الجميل ، ومكافأته عليه ، والعفو في مكانه . هذا جناح ، والآخر : تأديب

(١) الموتور : من قتل له قتيل فلم يدرك دمه .

الفاجر ، الذى لا يرعى حرمة ، ولا يقيلم وزناً لخلق . ولا يعرف حرمة لكلمة ، ولا وفاء بعهد . لقد أقام محمد قوة الخلق ، وخلق القوة : بقوة الخلق فتح القلوب، واستل الضغائن ، وأتم على الإنسان ما هو به إنسان . فأقام به دنيا فريدة ، ودولة جديدة ، تختلف فى أساس قيامها ، وفى الغاية من قيامها ، وفى نظمها ، التى تحكم ما بين قيامها وغايتها عن كل ما عرفه بنو الإنسان .

وبخلق القوة صان تلك الدولة ، وأدب الماردين وخضد شوكة المعتدين ، وردّ عادية المتمردين ، وحفظ للحرية حقها الطبيعى فى الوجود ، وحفظ للديار حرمتها ، ونشر الأمن ، وأعطى الأمان ، ومكن للحق .

وبقوة الخلق ، وخلق القوة سلم للدعوة طريقها ، وللدولة بناؤها ووجودها ، والذين يدعون إلى خلق العفو والرحمة ، ويعيبون القوة إنما يخادعون الذين آمنوا ، ويدعون المسلمين إلى غير ما يدعوهم إليه دينهم ، وما تطلبه حقيقة الحياة ، وطبيعة الإنسان . ولا يخدع بمثل هذه الدعوة إلا ضعيف مخذول ، مجاف للدين ، وغافل عن الحياة .

٣٤ ـ هذا ، وكما سلمت للعربى فطرته ، وسلم فكره ، صح جسمه : قومته الطبيعية ، وقوته خشونة البيئة ، وشد من عضده شظف العيش ، وخشونة حياته .. فلم يضعف بترف وتنعم ويسر عيش . هذا إلى أسباب أخر ، جعلت العرب ـ فى صحرائهم ـ أجدر بحمل هذه الرسالة .

جاء الإسلام إلى العربى ، فى خصائصه تلك فقوى طيّبها ، وقوّم معوجها ، ونفى عنها الخبيث ، وزاده على فضائله فضائل ، واستنبت فى أرضه الطيبة بذور الإسلام ، فكان العربى باستعداده الفطرى والبيئى ، ثم بما أمده الإسلام خير أمة أخرجت للناس . لقد تحمل من عظائم الجهاد ، وشدائد الجلاد ما لا يستطيعه سواه إلى يوم الناس هذا .

لقد كانت رحلة الإسلام ــ من ساعته الأولى ــ رحلة الصراع بين الباطل المسلح ، وبين الحق الذى لا يملك من وسائل البقاء إلا أنه الحق . ولو سارت رحلة الإسلام فى صراعه على أيد ناعمة علي نحو مايريده الذين يعيبون قوة الخلق وخلق القوة ــ لقضى علي الإسلام فى مهده ، ولبقيت البشرية فى ظلمات الشرك ، وسطوة القهر ، وتفرد الإستبداد ، ووهدة التخلف .. فمن يعب على الإسلام منهجه ، فإنما يريد للبشرية تلكم الظلمات .

لقد أتم محمد ﷺ قوة الخلق بخلق القوة على أيدى أقوياء ، فأكمل الخلق الإنسانى بوجهيه ، وبوسيلته وحامليه ، وكان خلق القوة شاهداً لقوة الخلق ــ فى لينها ورحمتها ــ أنها عن قوة وليست عن ضعف ، وكان هذا وذاك شاهداً للعربى بتميزه واستحقاقه لحمل هذه الرسالة ، وأن يكون خير أمة أخرجت للناس ، وأن يكون مصداقاً لقول الله ﴿ **الله أعلم حيث يجعل رسالته** ﴾ .

٣٥ ــ إن قدر الطاقة الخفية ، والقوة المعنوية ، التى تمنحها القيم المطلقة للإنسان ــ حقيقة شهدت بصحتها التجارب ، وقد دخلت

البشرية تجربة (الماديات) والزعم بأنها هى الموجه الوحيد للإنسان ، وأنها صانعة تاريخه .. ثم ابتليت هذه المزاعم بشدائد الحروب ، ومحن الأيام ، وحوادث الطبيعة فانهارت تلك المزاعم . ولم يجد زعمائها بداً لاستخراج قوى الإنسان الدفينة إلا ببعض (القيم المطلقة) مثل : الوطنية ــ القومية .. وإن القدر الذى تستخرجه هذه القيم لا يساوى شيئاً إلى جوار القوة التى يمنحها للإنسان الإيمان بالله واليقين فى المصير إليه !

وقد كانت (بدر) مثلاً لهذه الحقيقة .

ضروب من شجاعتهم

٣٦ ــ كان أول من لقي أبا جهل معاذ بن عمرو بن الجموح وقد كان أبو جهل يحيط به جماعة من قومه ، كأنهم شجر كثير ملتف ، يمنع الداخل إليه ، وهم يقولون : أبو الحكم لا يُخلص إليه ، فسمعها معاذ ، فجعل أبا جهل شأنه كله ، فصمد نحوه ، فلما أمكنته الفرصة حمل عليه ، فضربه ضربه أطنّت قدمه بنصف ساقه ، فضربه ابنه عكرمة علي عاتقه ، فطرح يده ، فتعلقت بجلدة من جنبه ، فانصرف عن أبي جهل . وظل يقاتل عامة يومه ، وهو يسحب يده خلفه ، بجلدة جنبه . فلما آذته ، وضعها تحت رجله ، ثم تمطي بجلدته حتي طرحها !! هذا ، وعاش معاذ إلي زمن عثمان بن عفان !

* سمع عمير بن الحمام رسول الله ﷺ ، يقول ، يوم بدر : والذي

نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل ، فيقتل صابراً ، محتسباً ، مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة . وكان بيد عمير تمرات يأكلهن ، فقال : بخ بخ (كلمة تقال لتعظيم الأمر ، والتعجب منه) ما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء . ثم قذف التمرات من يده ، وهويقول : إن حييت حتي آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة . ثم أخذ سيفه ، وقاتل ، وهو يقول :

ركضاً إلـــي الله بغيـر زاد إلا التقي وعــمل المعــاد

والصبر في الله علي الجهاد وكل زاد عرضة للنفاد

غير التقي ، والبر ، والرشاد

* وقال عوف بن الحارث بن عفراء : يا رسول الله ، ما يُضحك الربّ من عبده ؟ (أي ما يرضيه غاية الرضا) قال : غمسه يده في العدو حاسراً . فنزع درعاً كانت عليه ، فقذف بها ، ثم أخذ سيفه ، فقاتل القوم حتي قتل ! وخلع الدرع ، وارتجل عن الفرس ، والقتال حاسراً ، راجلا ـ كان أقصي درجات الشجاعة عندهم .

وعوف بن عفراء ، هذا ، أحد سبعة بنين ، أولاد عفراء ، كلهم شهد بدراً ، استشهد منهم ثلاثة .

* وكان من أوائل القتلى ، يوم بدر ، حارثة بن سراقة ، وبلغ أمه وأخته مقتله ، فلما قدم الرسول ، قالت أمه : يا رسول الله ، عرفت موقع حارثة من قلبي ، فأردت أن أبكي عليه ، ثم قلتُ : لا أفعل حتي

أسأل رسول الله ﷺ ، فإن كان في الجنة لم أبك عليه ، وإن كان في النار بكيته ، فقال : ويحك ! أجنة واحدة ؟! إنها جنان ، وحارثة في الفردوس الأعلي . فرجعت وهي تضحك ، وتقول : بخ بخ ياحارثة !!

وهكذا أعلي الإسلام عاطفة الأمومة ، ولم يدعها كما كانت عمياء مرسلة ، بل بصرها بالعلم حقائق الحياة ، وقيدها بالإيمان ، فكان الله ورسوله ، والدعوة إليهما أعلي عند كل أم وأغلي من الولد ، ومن حبه .

وهذه هي الخنساء ، التي عرفت شاعرة برثاء أخيها صخـر ، ورثته رثاء يشرك سامعيه معها في حزنها ، وآلت علي نفسها أن تبكيه أبداً . فلما أدركها الإسلام ، أعلي غريزتها ، وأغلي دمعها ، وسما بعاطفتها : يُقتل بنوها الأربعة ، في معركة القادسية ، فلم تزد علي أن تقول : الحمد لله الذي شرفني بقتلهم ، وأرجو أن يجمعني بهم في مستقر رحمته .

* ومن صور هذا الجلد النسائي ، الذي صنعه الإسلام ، ما روي من أن النبي ، ﷺ ، لما عزم علي الخروج إلي بـدر قالـت لـه (أم ورقة بنت نوفل) : يا رسول الله ، ائذن لي في الغزو معك ، أمرّض مرضاكم ، لعل الله يرزقنى الشهادة ! فقال لها : قري في بيتك ؛ فإن الله يرزقك الشهادة . وكانت أم ورقة قد قرأت القرآن ، فكان الرسول يزورها ، ويسميها الشهيدة . فكان الناس يقولون لها : الشهيدة . وصدق رسول الله ﷺ ، إذ لما كانت خلافة عمر غدا علي أم ورقة غلام وجارية ،

وكانا لها ، وكانت دبّرتهما ، أي قالت لهما : إذا مت فأنتما حران ، فتعجلا موتها فعدوا عليها ، فغمياها بقطيفة إلي أن ماتت ، فجيء بهما إلي عمر ، فأمر بصلبهما . وقال : صدق رسول الله ، ﷺ ، كان يقول : انطلقوا بنا نزر الشهيدة .

* ومن هذا الباب ما كان بين أبي بكر الصديق وابنه عبد الرحمن ، وهو يومئذ مع المشركين . وقام إليه أبو بكر ليبارزه ، فقال له رسول الله : متعنا بنفسك يا أبا بكر ، أما علمت أنك عندي بمنزلة سمعي وبصري . وقد تذاكر عبد الرحمن وأبوه هذا الموقف ، بعد ، فقال عبد الرحمن ـ وكان من أشجع قريش ، وأشدهم رماية : لقد أهدفت لي يوم بدر ، مراراً ، فصدفت عنك . فقال الصديق : لو أهدفت لى لم أصدف عنك .

وشبيه بهذا ما كان من أبي عبيدة بن الجراح وأبيه ؛ فإن أباه قصده ليقتله ، فولي عنه أبو عبيدة ، لينكشف عنه ، فلم ينكشف عنه ، فرجع عليه أبو عبيدة وقتله ، وأنزل الله :

﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الاخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم .. ﴾ .

* وقاتل الزبير بن العوام ، يوم بدر قتال الفوارس الأفذاذ ، قتالاً ترك أثر جراحاته عميقاً . وكان هذا شأنه ، فقد حضر واقعة اليرموك ، وقال له أصحابه ، يومها : ألا تشدّ فنشد معك . فقال : إني إن شددت كذبتم . فقالوا : لا نفعل . فحمل الزبير علي الأعداء ، حتي شق صفوفهم ،

فجاوزهم وما معه أحد . ثم رجع مقبلاً ، فأخذ الروم بلجامه ، فضربوه علي عاتقه . قال عروة بن الزبير : كان في الزبير ثلاث ضربات بالسيف ، ضرب بعضها يوم بدر ، وبعضها يوم اليرموك . وكان عروة ، وهو صغير ، يدخل أصابعه في تلك الجرحات ، يعبث بها !!

* قد كان فيما تقدم بيان لما كان عليه القوم من الشجاعة والبأس ، وما زودهم به (الإيمان) ، حتي كانت شجاعتهم مضرب المثل في سائر الزمان .

وقد يجمع ما كانوا عليه ، في هذه الصفة وبواعثها ومقصدها ، قصة عبيدة بن الحارث : كان أحد الثلاثة المبارزين يوم بدر ، وكان أكبرهم سناً ، وكان أسنّ من النبي بعشر سنين ، **إذ كان في الخامسة والستين !** نادى منادى المشركين : يا محمد ، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا . فقال ﷺ : قوموا يا بني هاشم ، فقاتلوا بحقكم الذي بعث به نبيكم ، إذ جاءوا بباطلهم ؛ ليطفئوا نور الله . فبرز الثلاثة ، فبارز عبيدةُ عتبة بن ربيعة ، وبارز حمزة شيبة ،و علي الوليد . فأما حمزة فلم يمهل أن قتل شيبة ، وأما علي فلم يمهل أن قتل الوليد ، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين ، وكلاهما أثبت صاحبه ، وكرّ حمزة وعلي عتبة فذففا عليه ، واحتملا صاحبهما ، وقد قطعت رجله فمخها يسيل ، حيث النبي ﷺ ، فأفرش له الرسول قدمه الشريفة ، فوضع خده عليها ، وقال لرسول الله ﷺ : ألست شهيداً يارسول الله ؟ قال : بلي . فقال عبيدة : لو كان أبو طالب حياً لعلم أني أحق منه بما قال :

كذبتم ــ وبيت الله ــ يُبْزَي(1) محمدً

ولما نطاعـن دونــه ونناضـــل

ونسلمه حتى نصـــرع حولـــه

ونذهـل عـن أبنائنـا والحلائـــل

٣٧ ــ تلك أمثلة من شجـاعتهم بالإيمـان ، آمنوا فيـها بعهد الله ، **﴿ إن الله اشتري من المومنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفي بعهـده من الله ، فاستبشـروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم ﴾** (٩ : ١١١) .

هذا هو البيع الربيح ؛ إذ ليس هنا في ، الدنيا ، عقد ، ولا عهد ، أوكد ، ولا أوثق ، من عقد هذا البيع : فالمشتري هو الله ، عز وجل ، مالك كل شيء ، واهب الدنيا والآخرة . والبائع أولياء الله وأحباؤه ، الذين وصفهم « بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة علي المؤمنين ، أعزةٍ علي الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » . ومن جري علي يديه هذا العقد ، ولسانه ، هو أشرف رسله ، وخاتم أنبيائه . وجري توثيق هذا العهد في أشرف كتبه وأفضلها ، وهي التوراة والإنجيل والقران . والثمن هو دار الفلاح ، والمقامة ، التي من فاز بها فهو الفائز ، ومن خسرها فهو الخاسر ، دار هي مستقر رحمة الله ، وهي دار السلام ،

---

(1) يبزى : يُقهر ويُغلب .

التي يدعو الله عبادة إليها . وسوق البيع هي ميدان تصارع الحق والباطل ؛ ليميز الله الخبيث من الطيب ، ويقذف فيه بالحق علي الباطل فيدمغه ، ويعذب فيه المشركين بأيدي المؤمنين . فيا لله لأنفس هو خالقها ، وأموال هو رازقها ، يشتريها من عبيده ، الذين خلقهم ورزقهم ، بجنة عرضها السموات والأرض ، وهو الذي أعدّها لعباده المتقين .. ياله من عقد أكده بقوله : ﴿ **فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به** ﴾ . ثم ختم هذا العهد ببيان منزلته بقوله : ﴿ **وذلك هو الفوز العظيم** ﴾ .

ولما نزلت عليهم هذه الاية ، كبر الناس في المسجد ، وقالوا : بيع ربيح ، لا نقبل ، ولا نستقيل !! .

ووفاء بقولهم أقبلوا علي الجهاد بأموالهم وأنفسهم ، يحبون الموت كحب أعدائهم للحياة . أقبلوا علي ميادين القتال يعانقون الموت ، ويطلبونه في مواقعه ، ويتحسسونه في مظانّه ؛ ليسلموا المبيع ، ويتسلموا الثمن ، وقد أخبرهم الله أن الثمن حال ، وليس نسيئة ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون * فرحين بما آتاهم ربهم** ﴾ .

٣٨ – ومما ينبغي أن يعلم ، في هذا المقام ، أن شجاعتهم هذه ، بأمثلتها الرائعة ، **كانت شجاعة مقننة** ، في مقدماتها ، وفي نتائجها . فلم تكن بالعدوان ، بل كانت للدفاع عن النفس ، وللدفاع عن الدعوة . وفي كلتا حالتيها فلا بد ألا تكون لحظ النفس ، إنما تكون لوجه الله ، وإعلاء كلمته ، ورفع راية الحق ، ومطاردة الباطل . فالأصل في الإسلام ،

هو السلام ، والحرب عارضة ، فإذ كانت لضرورتها قنّن لها الإسلام قوانينها في بواعثها ، ومقاصدها ، وقدّرها بقدرها ، ورسم لها آدابها . فلا يقتل إلا من يقاتل ، ولا يذفف علي جريح ، ولا يتبع هارب ، ولا يمثل بمعتقل ، ولا تتعدى الحرب ميدانها ، فلا تضرب المدن ، ولا يفسد الزرع ولا يقتل الحيوان ، ولا تلوث المياه . ولا يقتل النساء والأطفال ولا الشيوخ ، ولا يتعرض للعباد في خلواتهم . وتلك قوانين عرفتها البشرية بالإسلام ، وحكم بها المسلمون قلبراتهم وشجاعتهم ، **وضبطوا بها عزة النصر** ، فكان العرب ـ بشهادة أعدائهم ـ أعدل فاتح عرفه التاريخ .

ألا ما أحوج العرب والمسلمين اليوم أن يجددوا صلتهم بهذا التراث الماجد ، ليهب لهم قدراً من شجاعة الإيمان ، فيدفعوا عن أنفسهم استهانه عدوهم بهم ، ويدفعوا عن مقدساتهم السلبية معرة الاغتصاب . ما أحوجهم ـ اليوم ـ ألا يخدعوا بمعنويات (الأرض) و(القومية) وأن يعلموا أن قدر الطاقة التي يمنحها (الإيمان) لا يعد له شيء . **إن هتاف (الله أكبر) كم دك من حصون ، وزلزل من صروح** ، وكم رعب قلوباً كافرة ، وطمأن أفئدة مؤمنة .. فما أحوجنا أن نربي عليه نشأنا ، ونزود به جنودنا . إن فصل هذا الهاتف الإلهي عن أساليب تربية النشيء ، وتزويد الجند ، قد حرمنا أقوي سلاح ، وأفضل العدة علي العدو ، وأقوي المكيدة في الحرب ، وساوي بين المسلمين وأعدائهم ، ففاقهم أعداؤهم بعددهم ، وعدتهم . إن أعداء (اليقظة الإسلامية) يكرهون رفع شعار (الله أكبر) وكم كتبوا في ذلك بعد العودة المؤمنة إليه في حرب رمضان ، ولم يروا إلا الأسباب المادية .

ولعمرى إنها لشهادة علي أنفسهم بالجهل بسر الحياة وشوق النفوس (وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم) فهل من توبة تطهر القلوب ، وتزكي النفوس ، وتقوم الأفكار ، وترجع المسلمين إلي قيم دينهم ، وسنن نجومهم الهادية !!

حب القائد

٣٩ ــ نجاح الفكرة يحتاج إلي (قيادة) تجمع الإرادة والفكر . كما يحتاج إلي الأتباع ، الذين يجمعون إلي إيمانهم بالفكرة طاعة القيادة . وكلما كانت هذه الطاعة علي بصيرة بما امنت به ، وعلي ثقه بالقيادة كانت نجاحاتهم أقرب . ويكون ذلك ــ علي صورته التامة بالحب الجامع للقيادة والأتباع ، عندئذ تنمو القوي الذاتية عند الأتباع ، فتؤتي من الثمار مالا تستطيعه علاقة الرهبة والقهر ؛ لأن هذه العلاقة تحقق (الاستقرار) الكاره ، والسكون المتربص ؛ وقد وضع الله لرسوله منهج القيادة في قوله : ﴿ **فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم في الأمر ، فإذا عزمت فتوكل علي الله . إن الله يحب المتوكلين** ﴾(٣ : ١٥٩) .

ومن هذا التأديب الإلهي ، والخلق القرآني قال ﷺ : « اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولي أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به » . وقال ﷺ : « خير أمرائكم الذين

يحبونكم وتحبونهم ، وشر أمرائكم الذين يلعنونكم وتلعنونهم » .

لقد اكتمل للمسلمين ، بنبيهم ، خطة الكمال التي تتم للأمة شأنها : المنهج القويم ، والقائد الصالح ، والأتباع المخلصون . وما زال محمد ﷺ قائد أمته ، وقدوة المصلحين فيها . وما زال حبه زوح نهضتها ، ووقود عزيمتها ، كما كانت لأصحابه وحواريه ، الذين كانت حياتهم كلها شواهد علي صدق هذا الحب ، حتي شهد به أبو سفيان ، وهو ما زال في لدد الخصومة والشرك ، وكانت بدر واحدة من مجالي هذا الحب البناء الفريد :ـ كان ﷺ يعدل صفوف أصحابه ، يوم بدر ، وفي يده قدح يعدل به القوم ، فمرّ بسواد بن غزية وهو متقدم عن الصف ، فطعن رسول الله ﷺ فى بطنه بالقدح وقال : استو ياسواد بن غزية ، فقال سواد : يا رسول الله ، أوجعتني ، وقد بعثك الله بالحق ، فأقدني (مكنى من القصاص) ! فكشف ﷺ عن بطنه ثم قال : استقد ، فاعتنق سواد النبى ﷺ ، وقبل بطنه . . فقال عليه السلام : ما حملك علي هذا يا سواد ؟ فقال : يارسول الله ، حضر من أمر الله ما تري فلم آمن القتل ، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك !

ويوم بدر عرض سعد بن معاذ علي النبي عرضاً يدل علي حبهم الشديد له ﷺ وعلي إيثارهم له علي أنفسهم : قال سعد : يا رسول الله ، نبني لك عريشاً فتكون فيه ، ونُعد عندك ركائب ، ثم نلقي عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا علي عدونا كان ذلك مما أحببنا ، وإن كانت الأخري جلست علي ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلف

عنـك أقـوام ، يا نبي الله ، مانحن بأشد حباً لك منهم ، ولو ظنوا أنك تلقي حرباً ما تخلوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصحـونك ، ويجاهدون معك .

وبني العريش ، وكان مركز قيادة المعركة ، وسعد بن معاذ قائم علي بابه ، متوشحاً السيف ، ومعه نفرٌ من الأنصار ، يحرسون النبي ﷺ يخافون عليه كرة العدو . ـ ولعل من أروع القصص في ذلك الحب والفداء قصة ولدي عفراء : معوذ ، ومعاذ التي رواها عبد الرحمن بن عوف ، قال : إني لفي الصف يوم بدر ، وإذ التفت ، فإذا عن يميني وعن يساري فتيان من الانصار ، حديثاً السن . فغمزني أحدهما ، فقال : ياعم ، هل تعرف أبا جهل بن هشام ؟ قلت : نعم ، وما حاجتك به ؟ قال : بلغني أنه كان يسب رسول الله ﷺ . والذي نفسي بيده ، لو رأيته لم يفارق سوادي سواده حتي يموت الأعجل منا ! فغمزني الآخر فقال مثله ، فعجبت لذلك ! فلم أنشب أن نظرت إلي أبي جهل ، فقلت لهما : ألا تريان ؟ هذا صاحبكما الذي تسألان عنه ، فشدا عليه مثل الصقرين ، فضرباه .. وفيهما قال ﷺ : رحم الله ابني عفراء ، اشتركا في قتل فرعون هذه الأمة ! ؟انظر ـ بربك ـ هذا الروح القوي ، والحماس الإيماني ، والحيوية الإسلامية ، والحمية للحق ، والإستهانة بالحياة ، والرغبة القوية في الإستشهاد في سبيل الدعوة وحب الرسول ، وتفديته بالنفس ، حتي إبان تفتح زهرة الحياة ، في شابين حديثي السن ، يغلب علي مثلهما الأمل ، والحرص علي الحياة ، هكذا كان شأنهم ، وهذه كانت صفة جميعهم ، وبهذا وصفهم القرآن وبضده وصف المنافقين ،

وضعفاء الإيمان . وحذر المؤمنين أن يكونوا مثلهم جبنا وهلما ، وحرصاً على حياة

﴿ يا أيها الذين امنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزيً لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير * ولإن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خيرمما يجمعون * ولئن متم أو قتلتم لإلي الله تحشرون ﴾ ٣ : ١٥٦ ـ ١٥٨ .

فالضرب في الأرض ، والخروج فيها دعوة ، وجهاداً هو فريضة الإيمان ، وطبيعة للمؤمنين بهذا الدين ، والقعود جبناً وخوزاً من صفات الكافرين ؛ لأن المؤمنين ، بإيمانهم بالله ، يرجون مالا يرجوا الكافرون . ورجاء المؤمن في الله من أهم بواعثه علي الشجاعة والإقدام . والكافر ـ بطبعه ـ يئوس قنوط ، لا رجاء له في لقاد الله ورحمته **﴿ والذين كفروا بآيات الله ولقاءه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم ﴾** ٢٩ : ٢٣ .

ألا ما أحوجنا ـ اليوم ـ إلى استعادة صفاتنا الإيمانية ، والعودة إلى طبيعتنا القرآنية . لقد تكست الصفات اليوم ، فمال المسلمون إلى القعود ، وهم أعداؤهم بالعمل ، والكشف ، والاختراع ، والتغلب ، والاستعمار .. وأملو علي المسليمن كلمتهم ، وباعدوا بينهم وبين دينهم ، وفرضوا عليهم أفكارهم .. وزهدوهم في دينهم ، وشانوا ، في أعينهم ، فضائله ، حتي تبرأ منه بعضهم ، وحسبوه علة التخلف والجمود ... ونام

المسلمون عن جهاد القلم ، وجهاد الفكر ، وجهاد السيف ، وتركوا إعداد القوة ، التي ترهب عدو الله وعدوهم ، وترد عنهم عاديات الجور والغشم .وطال علي المسلمين الأمد فقست قلوبهم ، فخمد في نفوسهم الحمية للحق ، والغيرة علي الإيمان ، والإصغاء لداعي الله والإسلام ! لقد غضب صبيان : معاذ ومعوذ ، لدينهم ، ولينبيهم ؛ لما علموا من بذاء أبي جهل . ومثلها غضب المسلمون لما فعلت يهود بني قينقاع بامرأة مسلمة ، راودوها عن كشف وجهها ، فأجلاهم المسلمون . ولمثلها غضب الخليفة المعتصم ، للامرأة مسلمة ، قالت ـ وهي في بلاد الروم ـ : وامعتصماه ! فلما بلغته قال : لبيك لبيك ! وغزي الروم ، وفتح عَمّوريّة . وسجل أدب العرب هذه الحمية ، أدباً خالداً في صفحات الخلود ، كما خلد أصحابها في دار الخلود قال أبو تمام :

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به

نظم من الشعر ، أو نثر من الخطب

فتح تفتح أبواب السماء له

وتبرز الأرض في أثوابها القشب

يا يوم وقعت عمورية انصرفت

عنك المنى حفلا معسولة الحلب

أبقيت جد بني الإسلام في صعد

والمشركين ، ودار الشرك في صبب

خليفة الله جازى اللـه سعيْك عـن

جرثومة الدين ، والإسلام ، والحسب

بصرت بالراحة الكبرى فلما تـرها

تنال إلا علي جسـر مـن التعـب

إن كان بين صروف الدهر من رحم

موصولـة ، أو زمام غيـر منقضـب

فبين أيامـك اللاتـى نصـرت بهـا

وبين أيـام بـدر أقـرب النسـب

أبقيت بني الأصفر الممراض كأسمهم

صفر الوجوه ، وجلت أوجه العرب [1]

أين المسلمون اليوم من هذه الحمية الإسلامية ، والسكينة الإيمانية ، التي كانت تثبت الأقدام في مواطن البأس ! إن صرخات المسلمين في فلسطين تجأر طلباً للنجدة ، وتشتكي إلي الله غفلة الولي ، وقسوة العدو . لقد بلغ الهوان بالعرب والمسلمين ـ إن هم أرادوا عون المستضعفين

(١) بنى الأصفر : الروم . الممراض : كثير المرض ، إشارة إلى أن صفرته كانت من مرض ، لا من خلقه . كاسمهم : أى كاسم أبيهم .

من إخوانهم في ثالث الحرمين ـ أن يستصرخوا أحباء اليهود ، علي اليهود ، فلا يجدون لهم ، من دون ذلك ، حولاً ولا قوة .

ومن نكد الدنيا علي الحر أن يري
عدواً له ما مـــن صداقـــته بـــــد

ولا والله ، ما بالمسلمين اليوم حر ، يري صداقة عدوه نكدا ، أو يري المذلة كفراً وما بالمسلمين اليوم (حرية) يستنكفون بها أن يكونوا دمي في أيدي أعداء دينهم ، وتبعاً لسراق كرامتهم ، وسالبي أوطانهم ! ألا ما أحوج المسلمين اليوم ، إلي نذير عريان ، من أنفسهم يهيب بهم أن هلم شمائلكم الإسلامية ، ومواريثكم المحمدية ، ونزعاتكم القرآنية ، تعدون لها قوة العصر ، وسلاح الحاضر ـ لتعودوا إلي مكانكم من الأرض ، وتستردوا مكانكتم من السماء ، وتقيموا رايتكم في الخافقين ، وتسمعوا صوتكم إلي الثقلين ، بخير وظيفة ، وأقرب رسالة ، أمةً وسطا ، شهداء علي الناس ، القرآن أمامهم ، وهَدْي محمد ﷺ طريقهم وسننهم ، والإسلام دعوتهم ، ومقادة الدنيا في قبضتهم ! ألا ما أبعد الواقع المفروض عن الواجب المأمول !! ولكن الإيمان يبعث الرجاء ، ويحيي الموت ﴿ **اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها ، قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون** ﴾ ٥٧ : ١٧ .

من معجزات الرسول ﷺ

٤ ـ من الخصائص الإسلامية ، في موضوع الإستدلال ، أنه لم يجعل (الخوارق) منهجاً من مناهجه . وإنما انتهج ، في الاستدلال علي الإلهيات ، والنبوات ، والغيب ـ منهجين ، بصفة جامعة : المنهج العقلي ، الذي يخاطب العقل ، ويقيم له الأدلة من الفكر المجرد ، والواقع المحسوس ، والتجارب المكرورة ، والنمهج الفطري ، الذي يكشف عن الفطرة الإنسانية في طبيعتها الأصلية ، والذي يوقظ المشاعر الكامنة في الإنسان .

وكان هذا المنهج الإستدلالي ، في القرآن ، مقصوداً ؛ لينتفق والدين الخاتم ، إذ يجد فيه طالب الحق دليل صدقه ، أو طلبه بحثه ؛ ويظل الإسلام دين الدعوة العالمية ، ويظل القرآن يخاطب البشرية .

المعجزات المادية موقوته بزمانها ، مقصورة علي من شاهدوها ، وهي ، لمن جاء بعدهم ، معلم تاريخي ، يصل حاضرهم بماضي البشرية ، إذا سلمت الرواية ، وصحت الدراية .

إن أصحاب العقول الصافية دخلوا الإسلام لاقتناعهم بحقائق ما جاء به ، فإسلام الصديق ، وعمر ، وعثمان ، ومصعب ، وغيرهم من السابقين . وإسلام عمرو ، وخالد . وإسلام الانصار ـ إسلام هؤلاء لم يكن عن خوارق أدهشت وجدانهم ، وأصمتت تفكيرهم ـ بل كان

إسلامهم عن اقتناع بما عرض عليهم من أصول الإيمان ، وقواعد الإسلام . ولم تخل ـ مع هذا الأصل حياة الرسول ﷺ ـ من طائفة من الخوارق المادية ، إما مساعدة للذين قصرت عقولهم عن إدراك الحقائق في صفائها العقلي ، وإما لواقعة حال تعين أصحابها على شدة ألمت ، أو حاجة عرضت ، من هذه الخوارق :

٤١ ـ كان في أساري المشركين وهب بن عمير ، وكان أبو عمير شيطاناً من شياطين قريش الذين يؤذون الرسول بمكة . جلس يوماً مع صفوان بن أمية ، في حجر الكعبة ، فتذاكرا أصحاب القليب ؛ ومصابهم في بدر . فقال صفوان : ما في العيش ، والله ، خيرٌ بعدهم . فقال عمير : والله صدقت أما والله ، لولا دين عليّ ليس عندي قضاؤه ، وعيال أخشي عليهم الضيعة بعدي . كنت أتي محمداً حتي أقتله ، فإن لي فيهم علّة : ابني أسير في أيديهم . فاغتنمها صفوان وقال : علي دينك ، وعيالك مع عيالي أواسيهم مابقوا . قال عمير : فاكتم عني شأني وشأنك . ثم إن عميراً أخذ سيفه وشحذه وسنه ، ثم انطلق حتي قدم المدينة ، فرآه عمر وهو في نفر من المسلمين ، وقد أناخ راحلته بباب المسجد . فقال عمر : هذا عدو الله عمير ، ما جاء إلا بشر ، ودخل عمر علي النبي عليه الصلاة والسلام ، وأخبره ، فقال ﷺ : أدخله عليّ . فأخذ عمر بحمالة سيفه ، وقال لجماعة من الأنصار : اجلسوا عند رسول الله ﷺ ؛ فإن هذا غير مأمون . ثم دخل به علي الرسول ، فلما رآه الرسول وعمر آخذه بحمالة سيفه في عنقه ، قال : أرسله يا عمر . ادن يا عمير ، فدنا ، ثم قال عمير : انعموا صباحاً . فقال الرسول ، عليه

السلام : قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير : بالسلام ، تحية أهل الجنة . ما جاء بك ياعمير ؟ قال : جئت لهذا الأسير الذي في أيديكـم ، فأحسنوا فيه . قال ﷺ : فما بال السيف في عنقك ؟ قال : قبحها الله من سيوف ، وهل أغنت عنا شيئاً ؟ قال ﷺ : اصدقني ، ما الذي جئت له ؟ قـال : ما جئـت إلا لذلـك قال ﷺ : بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر ، فذكرتما أصحاب القليب من قريش ، فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك علي أن تقتلني له ، والله حائل بينك وبين ذلك !

قال عمير : أشهد أنك رسول الله . قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء ، وما ينزل عليك من الوحي . وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان . فو الله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذي هداني للإسلام ، وساقني هذا المساق . فقال ﷺ : فقهوا أخاكم في دينه ، وأقرئوه القرآن ، وأطلقوا له أسيره ، ففعلوا ، وكان من نعمة الله عليه ــ ببركة الرسول ﷺ ، أن أسلم وأسلم معه أولاده . ثم كان من آثار هذه البركة المحمدية أن عميراً جاءه في منامه من قال له : قم إلي موضع كذا وكذا ، من البيت ، فاحفره تجد مال أبيك . وكان أبوه قد دفن مالاً ، ومات ولم يوصي به . فقام عمير من نومه ، فاحتفر حيث أُمر ، فأصاب عشرة آلاف درهم ، وتبرا كثيراً . فقضي دينه ، وحسن حاله وحال أهله . وكان ذلك عقب إسلامه . فقالت له الصغري من بناته : يا أبت ، ربنا هذا ، الذي حيانا بدينه خير من هبل والعزي ، ولولا أنه كذلكَ ما ورثك هذا المال ، وإنما عبدته أياماً قلائـل .

٤٢ ـ ومن قبيل هذه الخارقة ما قد ذكر أن قَبَاث بن أُشَيم قال : في نفسه يوم بدر ـ لو خرجت نساء قريش بأكمتها لردت محمداً وأصحابه قال : قدمت المدينة ، بعد يوم الخندق ، وسألت عن النبي ، فقالوا : هو ذاك ، في محل المسجد ، مع ملأ من أصحابه ، فأتيته ، وأنا لا أعرفه من بينهم ، فسلمت فقال ﷺ : يا قباث ، أنت القائل يوم بدر : لوخرجت نساء قريش بأكمتها ردت محمداً وأصحابه ؟! فقال قباث : والذي بعثك بالحق ما تحدث به لساني ، ولا ترفرفت به شفتاي ، ولا سمعه مني أحد ، وما هو إلا شيء هجس في قلبي . أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وأن ما جئت به الحق !

٤٣ ـ ومن هذه المعجزات ، التي كانت الحاجة عرضت أن عكاشة بن محصن ، في معركة بدر ، انقطع سيفه ، فأعطاه النبي ﷺ ، جذلا من حطب ، فقال : دونك هذا ، فلما أخذه عكاشة وهزه عاد في يده سيفاً طويلاً ، شديداً ، أبيض . فلم يزل عنده ، يقاتل به ، حتي قتل في الردة ، أيام أبي بكر . وكان ذلك السيف يسمي « العون » .

وكذلك انكسر سيف سلمة بن أسلم فأعطاه رسول الله ﷺ ، عرجونا من عراجين النخل ، فقال : اضرب به ، فإذا هو سيف جيد !

وهكذا التقت آيات الأرض وآيات السماء بهمة أولئك الأمجاد ، الذين باعوا أنفسهم لله ، يقيمون كلمته ، وينصرون شريعته ، ويعلون راية التوحيد ؛ فأمدهم الله بالملائكة ، يلقون الرعب في قلوب أعدائهم وقادهم محمد بالحق ، وأخذ بأيديهم إلي دحض الباطل ، وبقلوبهم إلي

قوة اليقين ، وعزائم الإيمان ، حتي أتم الله نعمته ، وأكمل لهم دينهم الذي ارتضاه لهم . إن الله تعالي لا يمنح آياته ، ولا يمد بعونه الذين يقعدون عن الأخذ بأسبابه ، وبذل أقصي ما منحهم من قدرة علي الفكر والعمل ، فإن هم بذلوا ما عندهم ، ولم يكسلوا عن عمل ، ولم يقعدوا عن جهد ، ولم يبق عندهم المزيد ، وظنوا أنهم قد كذبوا ــ أتاهم عون الله ونصره ، تلك سنة الله مع أنبيائه وأوليائه ، وهي سنته في عباده . **﴿ وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله ، فإذا جاء أمر الله قضي بالحق وخسر هنالك المبطلون ﴾** .

فعلي الذين يرفعون أكف الدعاء كسالي مفرطين أن يعلموا أن الله إنما **﴿ يستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله ﴾** .

حتي يثخن في الأرض

٤٤ ــ ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسري حتي يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ﴾ .

إذا اعتدي الكافرون ، ورفضوا دعوة السلام قبل العدوان ، ودارت علي قطبها الحرب ، فلا سلام ، ولا أسرى حتي تعلو كلمة الحق ، وتظهر قوة المسلمين ، ويتلقي الكافرون درساً يردعهم عن العدوان ، وتكون المعركة درساً للسلام ، يحقق المؤمنين فيه : (الإثخان) . وللإثخان معينان : الأول قبل المعركة : وذلك بالاستعداد المادي والنفسي ، وإظهار سلطان المسلمين ؛ وليعرف أعداؤهم قوتهم ، ويقظتهم ، وأنهم علي حذرهم .. فيورث ذلك الأعداء الرهب من

المسلمين ، والرغب في مسالمتهم ؛ فيكفوا عن العدوان ، فيفرغ المسلمون لدولتهم بالبناء ، ولدعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة .

والإثخان الآخر يكون في المعركة ، فإذا لم يكف المعاندون ، ولم يرهبهم ما أعد المسلمون ، وبلغ الكافرون غايتهم بشن الحرب علي المسلمين .. هنا يكون من الواجب علي المسلمين الإثخان ، بمعني الغلظة علي الكافرين ، وكثرة القتل فيهم ، حتي يذوقوا شوكة المسلمين وحر سيوفهم ، ويبلوا ذلك بأنفسهم ، لعله يردعهم ، ويرجعهم عن العود لمثلها . وبذلك يتحقق منهم ، ومن قبلهم شرط السلام ، فيكفون عن المسلمين ، ويعتزلونهم ، ويلقون إليهم السلم .

هذا هو السلام الجدير باسم السلام ، وهذا هو السلام الذي يدخله المسلمون ، وهذا هو السلام الذي يجنحون إليه ، إن جنح له الأعداء . لقد كان صوت العقل يُهيب بالمعاندين أن يزيحوا عن أعينهم غشاوة العناد والمكابرة ، وأن يصيغوا آذانهم لكلمة العقل ، لا لحمية الجاهلية ، فما استجابوا ، وما عقلوا ، وما آمنوا بالصدق إذ جاءهم : قال الأخنس بن شريق لأبسي جهل ، وقد خلا به ، لما تراءي الجمعان : أتري محمداً يكذب ؟ فقال : كيف يكذب علي الله وقد كنا نسميه الأمين ؟ ولكن إن كانت في عبد المطلب السقاية ، والرفادة ، والمشورة ، ثم كانت فيهم النبوة ، فأي شيء بقي لنا ؟!

بماذا تجيب سياسة العقل ، وعقل السياسة إذا التقي بمثل هذا في معركة هو الذي فرضها ؟ إنه الإثخان .

وكان عتبة بن ربيعة علي جمل أحمر ، يمر علي القوم ، ينهاهم عن القتال ، ويقول : إني أري قوماً لا تصلون إليهم وفيكم خير ياقوم ، اعصبوها اليوم برأسي ، وقولوا : جبن عتبه بن ربيعة ، ولقد علمتم أني لست بأجبنكم . فسمع أبو جهل فقال : أنت تقول هذا ؟ لقد ملئت رئتك وجوفك رعباً . فقال عتبه : إياي تعير ؟ ستعلم اليوم أينا أجبن . وبعد أن كان يحث قومه علي التعقل ، والرجوع كان أول المبارزين هو وأخوه شيبه ، وابنه الوليد ، وضاع عقله بحمية الجاهلية . ولما قتلوا ، ثلاثتهم ، قال أبو جهل : نصبر ، ولنا العزي ولا عزي لهم . وينزل المعركة مغروراً بنفسه ، قائلاً :

ما تنقم الحرب العوان مني بازل عامين حديث سني[1]

لمثل هذا ولدتني أمي

وأصاخ المشركون لصوت الحمية الجاهلية ، ورفضوا خطة السلام من المسلمين ، وخطة العقل من عقلائهم ؛ فأنزل الله سكينته على المؤمنين ، وأيدهم بملائكته ، وأيدهم بنصره ، وثبت لهم الأرض بالمطر ، ومن قبل غشاهم بالنعاس أمنة منه . وتلك ، علي مر الدهور ، ومر العشي ، سنة الله في المؤمنين وفي المعاندين ، وتلك سيرة المعاندين علي كل حين .

فماذا يكون جواب العقل وخطة السياسة ؟ ليس إلا الإثخان !!

---

(١) يقول : أنا مستجمع الشباب ، مستكمل القوة !

والشر إن تلقه بالخير ضقت بـه

ذرعاً ، وإن تلقه بالشر ينحسم

فأي عيب على سيف يجرد ، وأولاً ، ليراه الخصمون المعاندون ، لعلهم يرجعون ، أو يراجعون عقولهم ؟ وأي عيب على سيف لم يرهب بريقه أعداءه ، فاستخفوا به ، وأرادوا القضاء عليه ، وعلى أهله ، وأن يسكتوا كلمة الله ، ويطفئوا نوره ــ فعاقبتهم سيوف المؤمنين ببغيهم ؟!

ومما تقدم يظهر ــ أيضاً ــ تخاذل دعاة الاستسلام المنهزمين في نفوسهم ، والانقياد المستسلم ، والسلام المهزول ، الذي لا قوة لأصحابه ، ولا كلمة لهم فيه ، وإنما يستجدون به الأمان الهزيل ، والحياة التي ليس لها ولي يمنعها من الذل ، متظاهرين بحب السلام وما بهم إلا الضعف والخور والجبن ، الذي ألبسهم ثوب الذل ، وشملة البلاء (**ألم تر إلي الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار**) لقد بدل الأقدمون من أهل مكة نعمة الله عليهم بمحمد ، فكفروا به ، وعاندوه ، وائتمروا به وبيتوا له بليل ، وأحلوا قومهم دارالبوار في الدنيا ، بما عذبوا بالأزمات والمهالك ، وفي الآخرة بالخلد في غضب الله ، وبدل المحدثون ــ من المسلمين بما نسوا حظوظاً من دينهم ، وبما أهملوه رسالة ، تحقق لهم ذاتهم ، وتحفظ عليهم خصائصهم ــ فبدلوا نعمة الله عليهم بمحمد كفراً ، بما نسوا من سنته ، وما اشترعوا من أحكام بخلاف ما شرع ، فأحلوا قومهم دار البوار ، فأصابهم من الهوان ما أصابهم ، وغشيهم من قهر العدو ما غشيهم ، ﴿ **وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان**

الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ فهل من مدكر ؟!

قيمة بدر

٤٥ ــ شاء الله لغزوة بدر أن تكون في رمضان ، وشاء الله لشهر رمضان يكون فيه ــ إلي فضائله ــ غزوة بدر . فإذا كان شهر رمضان شهر الثورة علي النفس بالصيام ؛ لينزع مقادتها من الشهوات ، وفكرها من الشبهات ؛ بما يميط عنها من الاستغراق في مطالب الجسد ، وغرور العقل ، وبما يحول حقائق الروح من القول المجرد إلي العمل المباشر الممارس ، فلا تكون علوم المسلم ، وصلته بدينه كلاماً في كلام ، وإنما تكون قولاً يتحول إلي عمل ، وتجاريب تنتهي إلي يقين مشهود . وإذا كان رمضان ثورة علي الجهل بالقرآن : يحق الحق ، ويبطل الباطل ، وينصب الحجج ، ويقيم الدلائل والأدلاء ، ويدعو إلي الصراط المستقيم ، بمنطق من القول يزيل الرين ، ويهدي السبيل ، لمن سلم قلبه ، واستقام علي الطريقة ، وبريء من قحة العتو والنفور ، ولجاجة العناد والمكابرة ــ إذا كان رمضان كذلك ، فقد شاء الله لرمضان ، أيضاً أن يكون زماناً للثورة العملية علي طغيان الشرك في صورته العملية ، المعتدية بقوة السلاح ، وعنجهية العصبية الباطلة ؛ (ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون) ، فكانت فيه غزوة بدر ، غزوة الفرقان .

كانت فرقاناً بين الحق و الباطل :

ــ الحق الذي قامت عليه ، وبه السموات والأرض ، وقامت به ، وعليه ، فطرة الناس والأشياء . هذا الحق الذي يتمثل في صورته الكاملة

المطلقة في وحدانية الله : وحدانية الذات ، والصفات ، والأفعال ، فلا إله غيره ، ولا رب سواه ، ولا خالق إلا هو ، فصفاته صفات الكمال المطلق ، وكل شيء فعله وخلقه ، وبتدبيره ، فهو صاحب السلطان المطلق ، والحكم المطلق . كانت بدر هي الخطوة الكبري في إعلان هذه الحقيقة الكونية الإلهية ، الحقيقة التي ما زالت تنمو في عقول بعض قادة الكافرين ووجدانهم حتي استيقنوها ، فاعترفوا بها ، كما قال أبو سفيان ، يوم الفتح ، وقد قال له الرسول ﷺ : ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ فقال أبو سفيان : بأبي أنت وأمي ، ما أحلمك ، وأكرمك ، وأوصلك ، والله لقد ظننت [1] أنه لو كان مع الله إله غيره لقد أغناني .

* لقد كانت بدر فرقاناً بين هذا الحق في صورته التامة ، وبين الباطل الذي أراد أن يشوه تلك الحقيقة ، فيجعل لله أندادا ، ولصفاته نظائر ، ولأعماله أعوانا ، يمثلها تقوال أبي جهل ، يوم بدر ، : لنا العزي ولا عزي لهم ! .

* كانت بدر فرقاناً بين الحق والباطل في الاعتقاد ، كما كانت فرقاناً بين الحق والباطل في الضمائر والشعور ، فازداد المؤمنون إيماناً مع إيمانهم ، وتلاقي الفكر والشعور ، علي تلك الحقيقة التي استيقنتها عقولهم ، وامتلأ بها وجدانهم .

* ثم كانت بدر فرقاناً في الواقع الذي عاينوه ، فكانت تصديقاً لما

---

(١) الظن هنا بمعنى العلم الناشىء عن التدبر والتجربة ، مثله في قول الله : (الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم) فهي كلمة مطابقة لواقع أبي سفيان .

أُخبروا به من أن العاقبة للمتقين ، وأن الحق يمكث في الأرض ، فعلموا أن الحق لله ، وأن النصر من عنده ؛ إذ كانت بدر فرقاناً بين تصورين في عوامل النصر والهزيمة ، إذ جرت بدر وكل عوامل النصر – في الظاهر – في جانب المشركين ، وكل عوامل الهزيمة البالغة – في الظاهر – في جانب المسلمين . وقد أرادها الله كذلك ، وهي أول لقاء بين المشركين والمؤمنين ؛ ليقرر للعقيدة الصحيحة مكانها ومكانتها ، وليثبت المبدأ الأكبر في وجدانهم : ﴿ **وما النصر إلا من عند الله** ﴾ ﴿ **ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ، فاتقوا الله لعلكم تشكرون** ﴾ كانت بدر فرقاناً في الواقع ، تميز به المؤمنون ، وامتازوا ، وعلت فيه كلمة الله ، وتمكن به هذا التميز والامتياز ، بحيث لو أصابهم بعده قرح لما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله ، ولما ضعفوا ، ولما استكانوا ، بل يعلمون أنها (وقفة تأمل ومراجعة) يتأملون فيها المقدمات والنتائج ، والأسباب والمسبباب ، ويراجعون فيها أنفسهم وأعمالهم ، فتكون هذه الوقفة أنفع لهم – إذا قاموا علي تدبرها – في حاضرهم ، ومستقبل أيامهم .

كانت بدر – في الواقع – فرقاناً للمؤمنين بين عهدين : عهد الصبر والمصابرة والاحتمال ، وعهد القوة ، وإثبات الذات ، بمالها من تصور خاص في الكون والإنسان .

لقد كانت بدر – في الواقع – استهلالة ميلاد جديد ، لمجتمع جديد ، يقوم علي تصوره الخاص المتميز للكون والإنسان : تصور يقوم علي (الوحدة الكونية) التي تعود بأشتات الكون المتفرقة إلي وحدة جامعة ،

الله وحده مبدؤها ومنتهاها ، وهو ــ وحده ــ معبودها ، ومبتغاها ، منه كانت وإليه تعود !

كانت بدر ــ في الواقع ــ فرقاناً بين الركود ، والاستضعاف ، والميل إلي « غير ذات الشوكة » وبين (الحركة) و(المواجهة القوية) التي يحق الله بها الحق بكلماته .

كانت بدر ــ في الواقع ــ فارقاً بين (مرحلتين) في تصور كلي جامع : مرحلة كان المسلمون يؤسسون العقيدة ، فاقتضاهم هذا التأسيس أن يصبروا علي الإيذاء وإن طال ، وأن يثبتوا وإن فتنوا ، ثم أن يهاجروا ، ولو تركوا وراءهم الأهل والمال والدار . كانوا يرسون قواعد قوية دائمة ، وهم لا يشعرون أنهم يؤسسون لتغيير حركة التاريخ . أما بعد بدر ، فقد أخذوا يبتدرون زمام العالم عن وعي وإدراك ، وانجرت لهم مقادة التاريخ ، وأصبحوا ــ عن وعي وإدراك ــ يبدءون في تغيير العالم القديم ، بصنع العالم الجديد ، عالم هم حاملو تصوره ، وهم بناته وهم حراسة . عالم استشعر عقلاء الكافرين أنه آت لا ريب فيه ، فتنادوا أن خلوا بين محمد والناس . عالم استبشر به الإنس ، والملك ، والجن : لقد سمع أهل مكة ، في اليوم الذي أوقع المسلمون فيه بالمشركين ، منشداً يسمعون صوته ، ولا يرون شخصه ، ينشد :

أزار الحنيفيون بــــدراً وقيعــــــة

سينقض منها ركن كسري وقيصرا

أبادت رجالاً من لؤي ، وأبرزت
خرائد يضربن الترائب حسراً
فياويح من أمسى عدو محمد
لقد جاد عن قصد الهدي وتحيرا

* وهكذا قررت بدر مبدأ إسلامياً هو : أن الحق لا يحق ، ولا يمكث في الأرض ، وفي واقع الناس ، بالخطب والمواعظ ، والشروح والهوامش والحواشي و التقارير (والفناقل)[1] . لأن الباطل لا يقف عند حدود القول ، بل تضيق به حججه ، فيلجأ إلي حسم الموقف بالقوة والعدوان ، فالقوة والعدوان أقوي حججه ، وأبين برهانه ، فكان لابد للحق من (ذات الشوكة) ولا شبهة في ذلك عند عقل مستقيم .

قيمة البدريين

٤٦ ـ تلك كانت قيمة بدر ، ومنها كانت قيمة البدريين ، التي عبر عنها رسول الله ﷺ وهو بها أعرف ، في قوله للبدريين ، ليلتها : « والذي نفسي بيده لو أن مولودا ولد في فقه أربعين سنة من أهل الدين يعمل بطاعة الله كلها ، ويجتنب معاصي الله كلها إلي أن يرد إلي أرذل العمر لم يبلغ أحدكم هذه الليلة » . وعن حفصة قالت : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : إني لأرجو ألا يدخل النار ـ إن شاء الله ـ أحد شهد

(١) نحت من كتب الأزهر القديمة ، في الفتراضاتهم الإعتراضات والرد عليها : فإن قيل .. قيل

بدراً والحديبية . وكان ﷺ يقدمهم علي غيرهم ، ومن ثم جاء جماعة من أهل بدر إلي النبي ﷺ ، وهو جالس في صُفّة ضيقة ، ومعه جماعة من أصحابه ، فوقفوا بعد أن سلموا ، ولم يفسح لهم أحد . فشق قيامهم علي النبي ﷺ ، فقال لمن لم يكن من أهل بدر ، من الجالسين : « قم يا فلان ، قم يا فلان ، بعدد الواقفين » . فعرف ﷺ الكراهة في وجه من أقامه ، فقال : رحم الله رجلا يفسح فنزل قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل لكم انشزوا فانشزوا** ... ﴾ فجعلوا يقومون لهم بعد ذلك ، ويجلسونهم مكانهم .

وخص ﷺ ، أهل بدر ، بأن يزاد أحدهم ، في جنازته علي أربع تكبيرات ، تمييزا لهم ، ومزيداً من الدعاء لهم . وعن عليّ كرم الله وجهه أنه كبّر علي سهيل بن حنيف ستا ، وقال : إنه بدري .

وبمثل هذا الفضل ، الذي ميز البدريين من الصحابة تميز البدريون من الملائكة ، فقد جاء جبريل إلي رسول الله وقال : ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال ﷺ : من أفضل المسلمين . قال جبريل : وكذلك من شهد بدراً من الملائكة ! فلا عجب ، بعد معرفة هذا الفضل لبدر ، وأهلها ، أن نحتفي بها ، وأن نبتهل إلي الله ربها ، في ليلتها ، وعند ذكرها ، وقد كان فقيه القرآن وحافظه وترجمانه : زيد بن ثابت يحيي ليلة سبع عشرة من شهر رمضان ، وكان يصبح وعلي وجهه أثر السهر ، ويقول : فرّق الله في صبيحتها بين الحق والباطل ، وأعز في صبحها الإسلام ، وأذل

فيها أئمة الكفر ، وأنزل فيها القرآن .

وكان السلف يدعون الله عند ذكر أهل بدر ، وذكر الإمام الدواني أنه سمع من مشايخ الحديث : أن الدعاء عند ذكر أصحاب بدر مستجاب .

إنها بدر ، التي افتتح الله بها غزو العرب ، كما اختتمه بحنيين فتشابه الأول والآخر : فيهما رمى الرسول الأعداء بالحصباء، وفيهما نزلت الملائكة .

سورة بدر ـــ سورة الأنفال

٤٧ ـ ثم خلد الله بدراً في كتابه الكريم ، فأنزل بعد انقضاء بدر سورة الأنفال ، والتي تسمي باسمها ، فهي سورة بدر أيضاً ، ضمنها بعض وقائعها ، وابتداء معركتها ، وتأييدهم بنصره ، كما ضمنها بعض الواجبات الحربية ، وحكم الغنائم والأساري ، وبعض عوامل النصر المعنوية والمادية . وهاكم إيجازاً مفصلاً لما اشتملت عليه :

١ ـ قال في اختلافهم في النّفَل : (**يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول ..**) ١ : ٤ .

٢ ـ وفي خروجهم مع الرسول : ﴿ **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون** ﴾ ٥ ـ ١١ .

٣ ـ وقال في تبشيرهم بالنصر ، وتحريضهم علي القتال :

﴿ إذ يوحي ربك إلي الملائكة أني معكم فثبتوا الذين امنوا ﴾

١٢ ـ ١٦ .

٤ ـ وقال في عونهم ، بعد أخذهم بالأسباب :

﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم .. ﴾ ١٧ ـ ١٨ .

٥ ـ وقال في استفتاح أبي جهل :

﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ... ﴾ : ١٩ .

٦ ـ وفي الحض علي طاعة الله و الرسول :

﴿ يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون... ﴾ ٢٠ ـ ٢٩ .

٧ ـ وقال في بيان نعمة الله علي الرسول ، واستفتاح قريش علي أنفسهم :

﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ... ﴾ ٣٠ ـ ٣٥ .

٨ ـ وقال فيمن عاون أبا سفيان علي الأعداد لحرب الرسول ، ومصيرهم : **﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله .. ﴾** ٣٦ ـ ٤٠ .

٩ ـ رفي تقسيم الغنائم ، وما كان من التقاء الفريقين :

﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسة .. ﴾ ٤١ ـ ٤٤ .

١٠ – وفي تعليمهم بعض خطط الحرب ، وآدابها :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً ... ﴾ ٤٥ ـ ٤٩ .

١١ – وفي بيان مصير الكفار ، وبعض صفاتهم الكفرية ، وأحكام معاهدتهم ، وما يجب من إعداد القوة ، والغرض منها ، ومتي يكون السلم .. الآيات من ٥٠ ـ ٦٣ .

١٢ – وفي تحريض تالمؤمنين علي القتال ، وحكم الإثخان ، والمن ، والفداء .. الآيات ٦٤ ـ ٧٠ .

١٣ – وفي وجوب تناصر المسلمين ، ومن الذي لا ينصر من المسلمين ، ووجوب وحدة المسلمين والآثار الضارة لعدم هذه الوحدة .. الآيات ٧١ : ٧٥ .

الوحدة الموضوعية في سور القرآن

٤٨ ـ من العرض السابق لموضوعات سورة الأنفال تلوح لنا فكرة يتنازع فيها الكاتبون عن القرآن الكريم ، هذه الفكرة هي : هل كل سورة من سور القرآن ذات موضوع واحد ؟

والسبب في هذا التنازع أن كثيراً من سور القرآن الكريم تبدو في ظاهرها متعددة الموضوعات ، وأن الذين يقولون بعدم الموضوعية في سور القرآن يريدون أن يفهموا (الموضوعية) علي الطريقة المألوفة من

الكتاب والمؤلفين .

لكننا ـ عند التدقيق الهادي ـ نجد كل سورة من سور القرآن الكريم ذات موضوع أصلى كلى جامع ، أو جزئى من جزئيات كليات القرأن الكريم .

وأن السورة الطويلة ، وإن تنوعت موضوعاتها ، ذات غرض كلي جامع ، وما فيها من تنوع إنما جاء عوناً للغرض الكلي ، أو بمناسبته . كما نجد القرآن كله ذا موضوع واحد ذي شعب ترجع إلي ذلك الأصل الكلي الجامع . كما نجد (فاتحة الكتاب) جامعة لأغراض القرآن باعتبارها (فاتحة) : فالغرض الكلي الجامع للقرآن ، والهدف الأكبر له هو التعريف بالله خالق الكون وربه ، والدعوة إلي الإيمان به ،وإلي عبادته ، والاستعداد للقائه ، وإقامة البراهين علي : الوحدة الكونية ، التي تنظم العالم جميعه ، في أجرامه العظام ، وذراته الدقاق ، ما نعلم منه وما لا نعلم ، ما نبصر وما لا نبصر ـ في العبودية لله ، والمربوبية له .

وعلي أساس هذا الغرض الكلي الجامع تنقسم آيات القرآن إلي أقسام سته ، كلها من هذا الغرض الأكبر :

١ ـ الأول : التعريف بالله ، بذاته ، وصفاته ، وأفعاله .

٢ ـ التعريف بالطريق الموصل إليه ، وهو الصراط المستقيم ، الذي تجب ملازمته ، ومخالفة غيره .

٣ ـ التعريف بالحال عند الرجوع إلي الله .

وهذه الثلاثة ـ كما يقول حجة الإسلام الغزالي ـ هي الأقسام السوابق والأصول تليها الثلاثة الروادف والتوابع :

٤ ـ التعريف بحال المجيبين للدعوة ، ولطائف صنع الله بهم ، ومقصوده : التشويق ، والترغيب . وذلك هو قصص الأنبياء و الأولياء . ولطيف صنع الله لهم ، في الدنيا والآخرة . وتعريف أحوال الناكبين والناكلين عن إجابة دعوة الله ، وكيفية قمع الله لهم ، وتنكيله بهم . ومقصوده الزجر والترهيب . وذلك قصص المكذبين : عاد ، وثمود ، وفرعون ....

٥ ـ محاجة الكافرين ، ومجادلتهم ، وإيضاح مخازيهم بالبرهان وكشف أباطيلهم ، وهي ثلاثة :

أ ـ ذكرهم الله بما لا يليق .

ب ـ ذكر رسول الله ﷺ ، ووصفه بالسحر والكذب .. وإنكارهم نبوته .

ج ـ إنكارهم اليوم الآخر ، وجحود البعث ، والجنة والنار .

٦ـ السادس من أغراض القرآن التوابع التعريف بكيفية عمارة الدنيا ، التي هي الطريق إلي الآخرة ولقاء المعاد . وما لم تنظم دنيا الناس لشغلوا بها عن الغاية من وجودهم ، ولذلك كان التشريع الإلهي ضرورة دينية تردّ الإنسان ، ذلك الذرة الكونية إلي مكانه من تلك الوحدة الكونية ، التي تنتظم الكون كله ، بخضوعه لقوانين الله

وسننه . وكذلك كان التشريع الإلهي ضرورة عقلية ، إذ يأبي العقل أن يخلق الله الإنسان ، ثم يتركه هملا من غير تشريع ﴿ **أيحسب الإنسان أن يترك سدي** ﴾ قال الشافعي :

السدى : أن يترك فلا يؤمر ولا ينهي .

وقد انتظمت هذه الأغراض السته سورة الفاتحة ، باعتبار أنها أم الكتاب وفاتحته . ثم تجيء سور القرآن تتري مفصلة هذا الإجمال ، طالت السورة أو قصرت ، فسورة البقرة ـ علي سبيل المثال ، وهي أطول سور القرآن ـ غرضها الجامع : رسم صورة المجتمع الإسلامي ، في عقائده ، وشرائعه ، وأخلاقه ، مقارنا . بمجتمع آخر بخالفه ، وبيان دستور هذا المجتمع الإسلامي ، وأقسام الناس يالنسبة إليه . وهكذا تمضي السورة في رسم هذا المجتمع في خطوطة الكلية ، وتفصيلاته الجزئية . لذلك لا نتعجب من نداء العباس بن عبد المطلب في المسلمين ، عندما انهزموا عن جنود مسليمة الكذاب ، إذ ناداهم العباس بقوله : إليّ يا أصحاب سورة البقرة .

ومن الجدير بالالتفات إليه أن (وحدة السورة)[1] تتعدي الموضوع إلي اللفظ والنظم ، إذ نجد ألفاظاً بعينها كثر ذكرها في سورة دون غيرها كما نجدها ذات نظم منفردة بها عن غيرها ، وذات فواصل خاصة . ويمكنك أن تتعرف علي ذلك ـ علي سبيل المثال في سورة

(١) لكاتب هذا البحث كتاب بعنوان (الوحدة الموضوعية فى القرآن) لم يطبع وألقى محاضرة فى المنصورة .

(المؤمنون) .

مسائل إسلامية في سورة الأنفال

٤٩ – معية الله وولايته للمؤمنين :

سورة الأنفال سورة قتال ، ولكن القرآن ـ علي ما علمنا في وحدة سوره ـ يعود بالأغراض الجزئية إلي الغرض الأكبر ، وهو الله وصفاته وأفعاله ؛ ولذلك تحدث عن هذا الغرض الأكبر من الجوانب المناسبة لموضوع السورة :

فذكر من صفات الله أنه (العزيز الحكيم) . والعزة كمال القوة والحكمة كمال العلم . فناسب كمال القوة وكمال العلم موضوع السورة ، وما شرحت من مكر المشركين ، واعتدادهم بقوتهم ، وما ذكرت من نصر الله المؤمنين وهم أذلة ، وما أمدهم به من الملائكة :

ميكال معك ، وجبريل ، كلاهما   مدد لنصرك من عزيز قادر

وذكر معية الله ، وكرر ذكر هذه المعية . وهذه المعية واضحة الصلة بموضوع السورة . ونحن ندرك هذه المعية بآثارها : من العون والتوفيق في خطة المعركة ، واستثمار نتائجها ... وكذلك ولايته لهم ، يواليهم بعونه ومحبته .. ويا ضيعة من لا يكون الله وليه .

وتقرير المعية والولاية علي هذا النحو تقرير من تقريرات الإيمان ، وقاعدة عامة من قواعد القرآن ، تتحقق في كل زمان لمن قام بأحوالها ، وحقق أسبابها ، فهي سنة عامة من سنن الله ، تمد المؤمنين ـ في كل

عصر ـ بتلك القوة المعنوية ، التي لا تنجزها القيم الإنسانية : من القومية أو الوطنية ، أو نحوهما ، مما استعاض به الناس ـ في بعدهم عن قيم الدين ـ بعد تنكرهم لتوجيهات الإسلام .

والتاريخ ، والواقع الحاضر ، يشهدان بعجز هذا البديل . إنه بديل ذهني محض ؛ ليس له وجود ذاتي خارج الذهن ، فليس للوطنية أو القومية ذات قائمة بنفسها ، وإنما هي مدرك ذهني محض : وهي أيضاً ليست وثيقة الصلة بوجدان الإنسان ، صلة تجعله يقدمها علي نفسه وحياته . إنما الله ، سبحانه ، الذي تستند إليه كل القيم الدينية ذات موجودة ، يؤمن بها المؤمن في حياته ، ويهتدي إلي وجودها بفطرته ، ويمتليء بها وجدانه ، ويهديه إليها عقله ، ويعمل في حياته للقائها بعد مماته .

وهذا البديل الإنساني المخترع بديل عاجز ، لا عزه له ولا حكمة ، ولا معية له ولا ولاية ، فهو لا يري المجاهد في سبيله ، ولا هو يحسه ، ولا هو بقادر علي أن يجزيه بجهاده ، فالميت في سبيله ميت بلا أمل ، وعلي غير رجاء . ولن يغنيه ، ولا يغني عنه أن ينصب له (نصب تذكاري) يكتب عليه عبارات لا غناء فيها ، ولا تدركها أشخاص من كتبت لهم . إنما الله سبحانه عالم بمن جاهد في سبيله ، يعد له أطيب الجزاء . فالمجاهد في سبيله يجاهد فى سبيل غاية واضحة ، قادرة علي العوض والجزاء ، باقية بلا فناء ، يسعد المجاهد في جوارها إلي الأبد . والله ـ مع هذا الذخر الجليل ـ يمد المجاهد في سبيله ، ويتولاه بولايته ،

فيحق الحق ، ويقطع دابر الكافرين ، ويربط علي قلوب المؤمنين ، ويلقي الرعب في قلوب الكافرين ... وكل هذا العون والجزاء في سبيل غاية تسمو بالإنسان شعوراً وسلوكاً ، فليس ذلك في سبيل استغلال وطن لوطن ، ولا العلو في الأرض ، واستغلال أهلها واستعمارهم لمصلحة الغالبين ... إنما ذلك العون ، والجزاء ، في سبيل غاية نبيله تعلى قيمة الإنسان ، وتعلو بإنسانيته ، وتسمو بالإنسانية كلها ﴿ **يريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل** ﴾ .

وهذه الغاية ـ بذاتها ـ عامل قوي ، مع عامل الإيمان بالله ، ولقائه ؛ لإيجاد الروح الفادي عند المؤمن ، فيكون جهاده في الله ، ولله . أي في سبيل الحق الأكبر في هذا الوجود . ومن كبره ، وكبريائه تكبر روح المجاهد في سبيله . ووقائع جهاد المؤمنين ، في الحاضر والغابر ، علي ذلك خير شهيد !

٢ – ومن مسائل سورة الأنفال في السلوك والعمل :

أن الإيمان الصادق يستتبع العمل الصالح . ودعائم العمل الصالح : تقوي الله ، وطاعة الرسول ، وإصلاح ذات البين . وهذه مجامع الخير والهدي للمؤمن في نفسه وفي أمته ونظامها العام .

بينت السورة أن المؤمنين الصادقين ، الذين حققوا ـ بإيمانهم ـ هذه الجوامع ، يتمثل إيمانهم في صورة ذات دعائم خمس تدل علي أن المؤمن مؤمن حقاً : ﴿ **إنما المومنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ، وعلي ربهم يتوكلون . الذين**

يقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون ﴾ وهذه الجوامع من طبائع الإيمان ، وخصائص المؤمنين ، وهي التي توحي إلي المؤمن فعل كل خير حتى يميط الأذي عن الطريق ، ويقرأ السلام علي من عرف ومن لم يعرف .

وتقرير الإيمان وصفات المؤمنين حقاً علي هذا النحو نذيرٌ لقوم حسبوا الإيمان أمراً مستكناً في القلوب ، حسبه أن يعلن عنه بكلمة ، وما علي صاحبها ، بعد ، من جناح إن مضي في الغوايه ، ولم يزرع من الرشد عملا . فأذهبوا ـ بزعمهم هذا ـ عن الإيمان ثمرته ، وجعلوه بذراً من غير خضر ، وغرساً من غير ثمر . كما أطمعوا ـ بزعمهم هذا ـ ضعفاء الإيمان فدروا في غيهم ، وازوروا في صلفهم ، وخدعوا بإيمانهم ، ثم ظنوا أنهم ـ في لقاء ربهم ـ يزحمون الصالحين من عباده إلي دار كرامته ورضوانه !

لقد كان الإيمان ـ في نضارة الوحي ، وغضارة اليقين ـ دافعاً لأصحابه إلي بذل الجهد في حب الخير ، ونشر البر ، ورعاية الفضائل حتي غلب علي الناس صفة الإخاد الإيماني ، فأحس كل فرد بمايحسه أخوه ، فتقاسموا الخيرات ، كما تنازعوا الكربات ... فأقاموا عمود الدين ورفعوا راية اليقين ، ونشروها خفاقة فى العالمين . كل ذلك علي أساسين اثنين ، لا يتم أحدهما إلا بالآخر : الإيمان ، والعمل الصالح .

فهل للمؤمنين اليوم أن يزنوا إيمانهم ، وما هم عليه من دينهم بما بينت هذه المسألة ، وسواها من مسائل هذه السورة ؟!

لقد نعي الله علي ضعفاء المؤمنين الذين كرهوا الخروج مع رسول الله إلي لقاء عدوهم . وهؤلاء ـ علي ضعفهم ـ فوق الأكثرين من أقوياء الإيمان اليوم ، فهل نرتقب لنا ـ علي حالنا تلك ـ نصراً من الله وفتحاً ؟!

إنها دروس باقيات ، ما درست ، ومعالم واضحات ، ماعفت ، تنادينا : هلم إلي العود إلي أصوالكم ، قبل الفوت ،والتناوش من مكان بعيد !

يوضح ذلك المسألة الاتية :

٣ ـ تقرر سورة الأنفال سنة من سنن الله في مجتمع البشر ، تلك : عاقبة الظلم ، وتركه يفعل ما يشاء ، من غير ردع أو مقاومة ، وما يترتب علي ذلك من ضياع المجتمع كله ؛ إذا ترك عوامل الهدم تسري ، وأسباب الخراب تستشري ﴿ **واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب** ﴾ والفتنة في هذه الآية : كل ما من شأنه أن يوقع بين الأمة التنازع ، ويؤثر في وحدتها ، وكل ما من شأنه أن يشيع فيها الضعف ، كالفسق ، و الإسراف ، والترف ، والنعمة .

ومن هذه السنة الاجتماعية الإلهية ، التي أثبتها الله بالقرآن ، وثبتها في الوجدان : أن الإنسان ذو قدرة ، وإرادة ، وفكر ، واختيار لأفعاله : من إيمان وكفر ، وخير وشر ، وصلاح وفساد .. وما يرتبه الله علي اختياره وأفعاله من جزاء في الدنيا . ويضع القران لذلك قاعدة

عامه كليـة : ﴿ **ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها علي قوم حتي يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم . كدأب آل فرعون والذين من قبلهم ، كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم ، وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين** ﴾ وذكرت السـورة ﴿ **كدأب آل فرعون** ﴾ مرتين ؛ ليبين في الأولي دأبهم فيما فعلوا ، وفي الثانية ؛ دأبهم فيما فعل بهم .وإن في ذلك لعبرة لمن يخشي ، وفي مقابل الكفر ، وعمل السوء ، ومصيره ـ ذكر قاعدة مقابلة : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً** ﴾ وبذلك تم بيان السنة الإلهية ، في المجتمع ، بوجهيها ، من عمل سوءاً ، وصار عاماً ، وسمة غالية علي المجتمع أخذ الله به الجميع في الدنيا . ومن عمل حسناً ، وصار ذلك سمة غالبة علي المجتمع ، هداهم الله ، وصارت الهداية ملكة لهم يفرقون بها بين الحق والباطل ، والخير والشر ، والمصلحة والمفسدة ..

فهل للمسلمين أن يتدبروا هذه السنن ، وأن يعلموا أن الله لا يحابي ، وأنهم بشر ممن خلق ، تجري عليهم سننه ، وأحكامه ، إن هم آمنوا وعملوا الصالحات ، واتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا وأحسنوا جعل لهم فرقاناً ، وكان وليهم وناصرهم . وإن كانوا غير ذلك كان دأبهم كدأب آل فرعون ﴿ **وما ربك بظلام للعبيد** ﴾ .

٤ ـ ومن مسائل سورة الأنفال ما تضمنته من قواعد الحرب والسلام ..

وهذه القواعد مبثوثة في السورة بحسب سياق آياتها ، فمنها : وجوب إعداد القوة ، وحفظ الثغور ، وأن يكون القصد الأول من

ذلك إرهاب الأعداء ؛ ليتحقق (السلم المسلح) ، ووجوب تكافل الأمة في نفقات هذا الإعداد على الحرب ، إذا جنح العدو لها .
لكن متى يكون هذا الجنوح إلى السلم إسلاميا ؟

لا يكون إسلامياً إلا إذا كان عن قوة تحمل العدو علي طلب السلم .

أما دعوتنا إلي السلام لضعفنا وقوة العدو فهي عجز واستسلام وكسوتها بالسلام حيلة العاجز ، لا ينبغي أن نستشهد عليها بالقرآن ، فما هي منه في شيء . وأين (سلم) المسلمين ، التي تكون عن قوة ترهب العدو ، وتحمله علي الميل إلي السلام ، الذي تظل فيه كلمة المؤمنين عالية ، وحريتهم مصونة ، وعقيدتهم آمنة ؟

أين هذا من سلم معكوسة : العدو فيها هو القوي الغالب والمسترهب فيها هو المسلم ، وحقه هو المنكور ، وبعض مقدساته مسلوبة .. سموا هذا ما شئتم من الأسماء ، وزوروه بما استطعتم من الزخرف ، وانعتوه بما قدرتم من النعوت إلا أن تقولوا إنها السلم التي تحدث عنها القرآن !

إن مايعاني المسلمون ــ اليوم ــ من اثار العجز ليكشف لنا عن صدق حقيقة (السلم) القرآني ، ومدي الحق والصواب فيها . والمسلمون اليوم أحق من يدرك صدق المباديء القرآنية ، وضرورتها للخروج من المضايق التي حصرهم فيها عدوهم . وشواهد حرب المسلمين الأفغانيين قائمة حاضرة تشهد بولاية الله للمؤمنيين ، وإمدادهم بنصره ،وهم الأذلة المستضعفون ، وعدوهم أحد القوتين العظيمتين ، في

عالم اليوم .

أنى لأمة لا تنبت طعامها ، ولا تصنع سلاحها ، ولا تنفق في سبيل الله أموالها ، ولا تجتمع علي دينهاكلمتها .. أني لأمة هذا شأنها أن تفرض السلم القوية ، التي تعلو فيها كلمة الحق ، ويسفل كعب الزور . إنها لخديعة الطبع اللئيم أن نري العجز كيساً ، ونسمي الجبن والخور سلاماً ، وإنها لخديعة من أعدائنا أن يزعموا السلام وهم يقتلوننا ركعاً وسجداً .

إن السلام فضيلة ، وغاية مأمولة ، ولكنه لن يكون كذلك ما لم يكن نابعاً عن قوة تصون الحق ، وتنشر الحرية . إن الميل إلي السلام محمود ، ولكنه لن يكون لك من (لصوص) سلبوا المقدسات ، وانتهبوا الحقوق ، ثم نعاهدهم علي ذلك ، ونسميه السلام !

إن الحقائق لا يغير من كنهها تسميتها بغيرا سمها ، فاللص لص وإن سميناه الأمين ، والذل ذل وإن سميناه العز المبين ، والضعف ضعف وإن سميناه كيساً أو سياسة .

خاتمة مسائل السورة

٥ ـ وخاتمة مسائل سورة الأنفال :

ولاية النصرة بين المؤمنين

ولعل هذه المسألة الخاتمة جامعة كلية لكل قواعد المجتمع الإسلامي فما داموا مؤمنين ، يوالي بعضهم ، ولاية محبة ومناصرة ، ويشد بعضهم بنيان بعض ، وتتكافأ دماؤهم ، ويسعي بذمتهم أدناهم ، ويكونون يدا علي من سواهم ـ ما دام المؤمنون كذلك ، فقد حققوا الإيمان بالله ورسوله ، وطاعة الله ورسوله ، وبنوا علي هذه الأسس وحدتهم ، وأقاموا جامعتهم . فإن هم أضاعوها أضاعوا كيانهم ، وذابوا في أعدائهم ، وكانت الفتنة والفساد الكبير (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير) .

(فالكافرون) ـ في جملتهم فريق واحد تجاه (المسلمين) وإن كانوا ـ في عقائدهم ـ مللا متعددة ، ومذاهب شتي ، وهذا الخبر القرآني قد أكدته وقائع التاريخ ، ومن وقائعه الحديثة : تعاون العالم الغربي ، بكل اتجاهاته الدينية والفكرية علي إقامة إسرائيل في قلب الأرض الإسلامية واخر هذه الوقائع ـ من الناحية الفكرية ـ موقف الغرب والشرق معا لتأييد (سلمان رشدي) الهندي المولد ، البريطاني الجنسية ، والمرتد عن الإسلام بكتابه : (آيات شيطانية) الذي طعن فيه القرآن والرسول

والصحابة ... ثم يقف الغرب (الرسمى) بجانبه ، ويزعـم أن ما كتبـه (فكر) وأن (الفكر) يجب أن توفر له الحماية . ومن الغريب الغامض أن وفد الكتاب الروسي اقترح علي اتحاد الكتاب الأفريقيين ــ الآسيويين ضم هذا المرتد الملحد إلي هذا الاتحاد ، مع انسلاخه من جنسيته الهندية ومع رفض الهند نفسها لبعض كتاباته ، مما قوي ظن كثير من المعلقين في أن كتابه حلقة من حلقات الكيد للإسلام ، وتدبيرات فكر العدو للصحوة الإسلامية .

ولست هنا في موقف دراسة (السباب) الذي قدمه هذا المرتد ، ولا في موقف دراسة موقف الغرب والشرق . إنما الغرض هنا تسجيل صدق الخبر القرآني ؛ لعله يكون موقظاً لشعور المسلمين ؛ وأخذهم ــ عملاً ــ بالولاء الإيماني ، والحذر من نتائج عدمه التي بينها القرآن : ﴿ **إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير** ﴾ : أي إلا تفعلوا ما شرع لكم ، وفرض عليكم ، من ولاية بعضكم لبعض ، وتناصركم وتعاونكم مقابل ولاية الكفار بعضهم بعضاً ، تقع الفتنة في الأرض كلها ، والفساد الكبير . وفي ذلك ما فيه ، من الخطر الأعظم علي جماعة المؤمنين ، بتخاذلهم المفضي إلي ظفر الكفر بهم ، واضطهادهم في دينهم ؛ لصدهم عنه ، كما كان يحدث لضعفاء المسلمين في مكة ، وكما حدث ، بعد ، في بعض مراحل التاريخ .

فالفتنة : اضطهاد المسلمين ، وضعف الإسلام في نفوسهم ، وموت الحمية له في قلوبهم ، وتسرب الشكوك والشبهات حول صلاحيته لكل

زمان ومكان ، بل الشك في صحته في ذاته ، وصدق نيته ، كما شهدت بذلك صفحات التايخ التي شهدت نقص عروة المسلمين .

وتزداد هذه (الفتنه) ببسط الكافرين سلطانهم علي المسلمين ، واستئثارهم بمقادتهم الموجهة للسياسة والمجتمع ، فتضعف عزائم المسلمين ، وتهن صلتهم بعقيدتهم وشريعتهم وآدابها ، وهنا يبدأ المسلمون في الأخذ بعادات أعدائهم وتقاليدهم ، من غير تمييز بين الجوهر والعرض ، والقشر واللب ، والنافع والضار ، والمتفق المؤتلف ، والمناقض المختلف ودينهم الحق .

وفي هذه التربية تشيع (ثقافة) الأعداء في المسلمين فتعدو علي فكرهم ، كما عدت العادات والتقاليد علي سلوكهم ، ويوجد ، في هذه الحال ، من يدعو ـ باسم الإصلاح ـ إلي نبذ الإسلام جملة وتفصيلا والأخذ بثقافة الأعداء ، وعلومهم ، وعاداتهم جملة وتفصيلا ، ويقـع (الفساد الكبيـر) : والفساد الكبير هو الثمرة المرة لتلك الفتنة : سيطرة الكفر بعقائده ، وشرائعه ، وأخلاقه : فتكثر مظاهر الإلحاد والشرك بالله ، وعبادة غيره ، والاحتكام إلي غيرشرعه ، وشيوع الظلم والاستبداد ، والطبقية ، والتمايز العنصري ، بالدم ، واللون والأرض . وفي هذه الأحوال تضيع كرامة الإنسان . ثم تتناحر مذاهب الكفر للسيطرة علي الأرض والإنسان ، حتي تؤذن بالدمار ؛ وبذلك تنحل وحدة الإنسانية ، وتفسد الوحدة الكونية . وهما اللتان يحققهما الإسلام بعقيدته وشريعته ؛ إذ يردّ الإنسان إلي الله ؛ بردّ حركته

الاختيارية ، في العقيدة والعمل إلي حقيقته الوجودية (في الخلق) والأمر ، فينسجم مع الكون كله ، وتتم كلمة الله (في الأمر) كما تمت في (الخلق) « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » وفرض القرآن هذه الولاية العملية علي المسلمين يتفق وطبيعة الإسلام . فالإسلام حقيقة قلبية ذات كيان حي واقعي . **فليس الإسلام مجرد مباديء (نظرية) كتلك التي صاغها الفلاسفة والمفكرون ، إنما هو (عقيدة وشريعة) تطلب صياغة الواقع علي وفقها** ، وفي سبيل هذه الغاية تتعامل مع الناس علي أساس من (واقعهم) ولما كان (واقع) الناس أنهم ليس لهم – في مجموعهم – من نضج الفكر وسلامة الضمير ما يحملهم علي التفرقة بين الحق في ذاته ، وبين منافعهم وأهوائهم – لما كان شأن الناس كذلك ، تعامل معهم الإسلام عى أساس (واقعهم) وحصن دعوته بالقوة المادية والمعنوية ، التي تحفظ عليه حقائقه ، وتكفل لأهله حرية نشره ؛ ليصبح سلطاناً يحقق دين الله في الأرض ، وعقيدة تعمر القلب ، وعبادة توجه الجوارح ، وشريعة تحكم المجتمع ، وآداباً تقوم السلوك .. وكل ذلك لا يتم والمسلمون أوزاع مشتتون .

إن مجتمع غير المسلمين لا يفتأ يتحرك – مثل كائن عضوي – ضد مجتمع المسلمين . ومن ثم لا مناص للمسلمين من أن يكونوا ، كذلك ، مجتمعاً عضوياً حياً ، روحه عقيديه ، وقانونه شريعتهه . فإن لم يفعلوا لم يكن وجودهم الوجود الفعلي المفروض ، بل الوجود الحكمي ، الذي لا يعدو الذهن إلا إلي الكلمات . وعندئذ تكون الفتنة والفساد الكبير .

لقد حرص أسلافنا علي تحقيق هذه الوحدة العضوية ، بأعلي واجباتها وأدناها ، فتناصروا في الحرب ، وتقاسموا المال ، وتعاونوا علي البر ، وأمروا بالمعروف ، وتجاذبوا الود ، حتي أدني علاماته : قال الوليد بن أبي مغيث ، قال مجاهد : إذا التقى المسلمان فتصافحا غفر الله لهما ! قال الوليد : قلت لمجاهد : بمصافحة يغفر الله لهما ؟! فقال مجاهد : أما سمعت الله يقول : ﴿ **لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم** ﴾ وفي ظلال هذه الوحدة الإسلامية قامت حضارة : إسلامية الجوهر ، عربية اللسان ، إنسانية الاتجاه ، عالمية المبدأ و الغاية فلما أضاعوا هذه الوحدة الإسلامية خسروا أنفسهم ، وخسر العالم بخسارتهم .

وأعداء المسلمين اليوم يتفرقون علي مذاهبهم ، ويتنازعون علي مغانمهم ، ولكنهم ، يجتمعون علي حرب المسلمين ، ويتفقون علي تأخيرهم وإبقائهم علي مكانهم من التبعية والتخلف ، ولا يفزعهم شيء قدر ما يفزعهم اليوم صحوة المسلمين : في إحدي جلسات مجلس الشعب القريبة قام الدكتور محمد حسن الزيات وزير خارجية مصر الأسبق ، معلقاً علي بعض ما أثير في الجلسة ، ذاكراً أن لجنة أمريكية خاصة ، بحثت المشكلات التي تواجه الولايات المتحدة ، قدمت تقريراً إلي (الكونجرس) في أوائل السبعينات ، واطلع عليه الرئيس الأمريكي ، وقتها ، وكان تعليقه عليه : أنه لم ينزعج من استعراض هذه المشكلات والتحديات ، كما انزعج من فقرة جاءت فيه ، تقرر أن هناك يقظة في الشرق الإسلامي ترمي إلي أن يستعيد المسلمون قوتهم ووضعهم

المناسب لهم (١)

إن أعداء المسلمين ، في الداخل والخارج يحبون للمسلمين ثلاثة ويكرهون ثلاثة :

يكرهون لنا أن نكون خلفاء الأرض ، وأن يمكن لنا ديننا ، وأن نكون آمنين في بلادنا . ويحبون لنا ألا نتدبر كتابنا ، القرآن ، وأن تكون أقوي صلتنا به التعبد ، وألا نتفكر في كتاب الكون ، وأن تكون صلتنا به صلة الغافل عنه ، الجاهل بنواميسه ويحبون لنا بدلا من التدبر والتفكر ـ أن نغرق في الغيبيات المظلمة المبتدعة ، التي تعزل صاحبها عن الناس ، وتقطعه عن الحياة .

ويحبون لنا أن تقطع أوصالنا بالخلافات التاريخية ، وأن تتفرق كلمتنا في خلافات الأحكام الفرعية ..

ويتوصلون إلي أغراضهم فينا بأشياء يعملونها بأيديهم ، وأخري يدفعوننا لنعملها بأيدينا : يفرضون علينا التبعية الاقتصادية ، وكم لوحوا ، وصرحوا بمنع المعونات ، ويحولون بيننا وبين القوة العسكرية . وكم تواصوا بمنع الأسلحة عن بلادنا ، وأبوابهم لإسرائيل ليس عليها قفل ولا حراس .. ويرهبون ذوي السلطة منا ، ويخوفونهم من الإسلاميين ، لنقتل الصحوة بأيدينا ، ومنا ـ ويا حسرة علينا ـ من يعين علي نفسه ودينه ، ويقبل النصح ممن في قلبه دخن ، ويستجير علي قومه بأعداء قومه ودينه .

(١) صحيفة الأهرام ٢١ من رجب ١٤٠٩ ـ ٢٧ / ٢ / ١٩٨٩ .

والخلاصة

٥٠ ـ سورة الأنفال ، سور بدر ، تقرر ، بالقول ، وبالفعل ، وبالعقيدة ، وبالتشريع ثلاث قضايا مهمة ، هي بذاتها كافية لنهضة المسلمين ، وقيامهم برسالتهم العالمية . هذه القضايا الثلاث :

أولها : أن لله تعالي سننا إجتماعية، في المجتمع البشرى ، يحققها بقوانين أشبه بتلك القوانين التى تحكم ماديات الكون في أرضه وسمائه : فالعقيدة الإسلامية ، وما تستتبع من قيم في السياسة والاقتصاد ، والأخلاق ، وفي العلاقات الإجتماعية ، والدولية ، وما تتضمن من مباديء الحق ، والعدل ، والخير ، والصدق ، والأمانة ، والوفاء ، والفداء ، والإيثار ... إذا قام عليها مجتمع ساد ، وملك ، وكان له السلطان في الأرض ..

ثانيها : أن الإسلام ليس مباديء نظرية ، ولا مجردات ذهنية ، معزولة عن واقع الحياة ، وليس الإسلام مجرّبات بشرية معزولة عن السماء ، ينضجها الزمن ، ويكملها كر الأيام . إنما الإسلام وحي السماء ، يكون كياناً حيا ، في واقع الناس ، تقوم له دولة ، ولهذه الدولة أمة ، ولهذه الأمة رسالة : هي حمل الإسلام إلي أهل الأرض . وفرض الإسلام ، من حيث إنه نظام ، علي الأرض كلها ، ليكون الدين كله لله ، وليس القهر عليه ، من حيث أنه عقيدة ، فقد تقرر فيه : أنه لا إكراه في الدين .

ثالثها : أن المسلمين ليست لهم رابطة جنسية تقوم علي وحدة الأرض ، أو الدم ، أو اللون .. وإنما رابتطهم هي الرابطة الإيمانية ، التي تجعل المومنين ـ وإن تعددت أجناسهم وألوانهم وألسنتهم ـ أمة واحدة وأخوة في الدين .

علي هذه القضايا الثلاث يجب أن يقوم المسلمين ، وواقعهم وأن يعملوا تحت راياتها ، فإن لم يفعلوا كانت الفتنة والفساد الكبير ، وسلط الله عليهم من يلبس فروتهم ، ويأكل خضرتهم ، وظلوا علي ما هم عليه ، مما يسر العدي ، ويحزن الصديق .

ووعد الله حق، وقوله الصدق . ﴿ **وما ربك بظلام للعبيـد**﴾
والله المستعان وعليه التكلان .

عبد المجيد حامد صبح

ماجستير فى العلوم الإسلامية والعربية
موجه أول مادة التبية الإسلامية
بمحافظة القاهرة (سابقا)

المنصورة : ٢٢ من رجب سنة ١٤٠٩هـ
٢٨ من فبـــرايـر ١٩٨٩ م

ملحق في حكم الغنائم وحكمتها[1]

في عدد مجلة العربي ٣٣٨ كتب : د/ محمد أحمد خلف الله

تحت عنوان : « الإسلام والتراث الإسلامي ليقـر الآتـي :

١ـ إن الإسلام غير التراث الإسلامي ، فالإسلام وحي الله وبيان رسوله . أما التراث فهو تفاعل العقل والإسلام .. فالإلحاد من التراث .

٢ ـ وأن الإسلام له قداسته فلا يبدل .

٣ ـ وأن الشريعة غير التشريع . وهذا الآخير محل إجتهاد ، ويجوز تبديله .

٤ ـ وأن الوحي الإلهي وبيانه النبوي ينقسم إلي عقائد وعبادات ومعاملات ، وأن للعقل حق إدخال تعديل علي نصوص في المعاملات ، ووضع تشريع جديد علي خلاف ما في النصوص السماوية » !!

وفي سبيل تعديل أحكام المعاملات الذي اقتضتة المصلحة ـ بزعمه ـ ذكر من أحكام القرآن في المعاملات :

تقسيم الغنائم ، والرق ، والشهادة علي الزنى . وكلاً منا ، ههنا مقصور علي رد تلبيسه في حكم الغنائم ،لإتصاله بموضع هذا الكتاب .

---

(١) ألقى هذا البحث مفصلا محاضرة فينادى المعلمن فى بيلا محافظة كفر الشيخ .

ومن تفنيد زعمه في موضوع الغنائم يتضح تلبيسة في الموضوعين الآخرين ، كما يتضح منهجة التفكيري والإعتقادي وليس ما كتبه في مجلة العربي إلا خيط من نسيج فكره واعتقاده الذي يبثه فيما يكتب ، كما زعم في مقالاته في صحيفة الأهرام أن الإسلام دين عربي محليّ ، وليس عالمياً ! وكما زعم في كتابة « هكذا يبني الإسلام » « أن القرآن عالج بعض الموضوعات الاجتماعية بأسلوب يجرح شعورنا الآن » ، وبناء علي هذا الزعم والشعور المرهف الحساس أقترح استبدال الفاظ : المعونات الاجتماعية ـ المساعدات الاقتصادية ، بألفاظ القرآن : الزكاة ـ الصدقة ـ الإحسان !!

هذا هو منهجة التفكيرى وواقعة الاعتقادى .

وهذا هو ما يهدف إليه : الزعم بعدم صلاحية الإسلام لزماننا، وعلينا أن نضع نحن ما يلأئمنا من تشـريع ، ولا حـرج ، ولا تثريـب !! كل ذلك من نبع واحد ، ولا عجب فكل إناء بالذي فيه ينضح !!

ـ ٢ ـ

وأول ما يلفت النظر ـ فيما كتب في العربي ـ تناقض أجزاء فكر المقال . والفكر السوي لا يتناقض ، إذ كان من وراءه شعور واحد ، يوجهه ، ويوحد بين أجزائه . أما الفكر الذي لا تعنيه المقدمات الصحيحة ، وإنما تعنية النتيجة التي يستهدفها فإنه لا يبالي بوحد الشعور ،

وسلامة المقدمات . بل هو يعني بتلفيق المقدمات لتنتهي به إلي نتائج آمن بها أولاً ، ثم صنع لها مقدمتها ثانياً . علي عكس ما يفرضة العقل الذي يتذرعون به ، والعلم الذي به يتحصنون .

بينما يقرر الكاتب في مقاله « أن المقدس هو ما جاء عن الله والرسول » وأن « الذي يملك قوة الإلزام الديني هو ما كان مقدساً » يقرر ــ مع ذلك ــ أن « الأخذ بالجديد يقتضي تعديل نظام الغنائم ، ومعني هذا عدم الأخذ بالنظام القديم ، ومعناه إخراج آية الغنائم من ميدان الممارسة » ا هـ

والتناقض واضح بين تأكيده مرات أن النص السماوي ، وبيانه النبيوي مقدس ، وملزم ، وليس للعقل حق تعديله ــ وبين زعمه أن المصلحة المستحدثة تقتضي إخراج أية غنائم من ميدان الممارسة !! وما زال يلح ــ في مقاله ــ ويؤكد التفريق بين الإسلام الذي هو وحي إلهي وبيان نبوي ــ وبين التراث ، الذي هو « ما ورثناه عن الأسلاف من نتاج عقولهم في تفاعلها مع الإسلام ، وهو الألوان الثقافية التي ورثناها ، والتي أنتجتها العقول .. فالتراث وضع بشري » ا هـ

فهل آية الغنائم من التراث البشري ، فيجوز ــ بذلك ــ أن نخرجها من ميدان الممارسة ؟ وهل هي من الألوان الثقافية التي أنتجتها العقول ، وإن كانت آية الغنائم ــ عنده ، كذلك ، فكيف وصفها بأنها « تشريع سماوي في غنائم الحرب » ؟

وكيف جمع في وصفها بين « تشريع » و « سماوي » وهوقد فرق

بين التشريع والشريعة ؟ « فالشريعة ـ كما قال ـ ما مصدرها الوحي وبيان الرسول . أما التشريع فيتجاوز ذلك إلـى ما لا نص فيه » .

ويقيني ، أو ظني الذي يساوق اليقين ، أن هذا التناقض غير خاف علي صاحبه ، إذ هو بين لا يخفي علي كل ذي مسكة من عقل . وإنما علته الخفيه محاولة التلبيس في آيات الله ، وزرع الشك في عمومها وخلودها وصالحيتها لكل زمان . والعلة الخفية من وراء ذلك تكمن في محاولة تفسير الإسلام علي طريقة الغربيين ، بعد أن عزلوا الدين عن سلطانه في ممارسة الحياة العامة ، وأخرجوا عنه اختصاصة التشريعي ، وقصروه علي الضمير الفردي ، بل قل إن دينهم هو كذلك في حقيقته ، فردوه إلي هذه الحقيقة التي تجاوزها إلي شئون الدولة والمجتمع فأراد قومنا تقليد الغربيين ، فحاولوا فهم الإسلام علي غير وجهه ، ونزعه من حقائقة . ومن ثم كان تأكيد الكاتب علي أنه لا عمل للعقل في أمور العقيدة والعبادة ! وهذا ، بدوره ، فهم غربى للإسلام غريب متنافر غرابة النقيض عن نقيضة . لقد أقام الإسلام عقائدة علي منهج البحث والنظر والتدبر والتفكر والإقتناع ، بدءا من وجود الله ، ووحدانيته ، وانتهاء إلي اليوم الآخر ، وما فيه من جزاء . إن الزعم بأن تعليل الأحكام بالمنافع ، ومصالح الناس خاص بأحكام المعاملات ، دون أحكام العقائد والعبادات ، زعم ينقضه واقع الإسلام فالإسلام قد خاطب الناس ـ في عقائدة وعباداته ـ خطاب من يحرك عقولهم ، ويستثيرهم لمصالحهم

ففي قضية وجود الله يقول لهم ﴿ **أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقين** ﴾ « ٥٢ : ٣٥ » ففي هذه الآية استقراء تام ، محصور في ثلاثة احتمالات عقلية : أما أن يكونوا ـ وهم موجودون بعد أن لم يكونوا ـ خلقوا من لا شيء ، أي يكونوا خلقاً من غير خالق . وإما أن يكونوا هم الذين خلقوا أنفسهم وأما أن يكون له إله خالق . والأولان باطلان ، فتعين الثالث ، وفي قضية الوحدانية يقول : ﴿ **لو كان فيهما ألهة إلا الله لفسدتا** ﴾ ٢١ : ٢٢ .

أي ولكن السموات والأرض كائنتان غير فاسدتين ، وإذاً تعين وجود إله واحد .

وفي قضية اليوم الآخر يقول :

﴿ **أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ ما لكم ؟ كيف تحكمون ؟** ﴾

٦٨ : ٣٥ ـ ٣٦ .

وفي الصلاة يقول : ﴿ **إن الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر** ﴾ ٢٩ : ٤٥

وفي الزكاة يقول ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها** ﴾ ٩ : ١٠٣ .

وفي الصيام يقول : ﴿ **وإن تصوموا خير لكم** ﴾ ٢ : ١٨٤ .

وفي الحج يقول : ﴿ **ليشهدوا منافع لهم** ﴾ ٢٢ : ٢٨ .

وفي التشريع وفوائدة عامة يقول ﴿ **فهل عسيتم أن توليتم أن تفسدون في الأرض وتقطعوا أرحامكم** ﴾ ٤٧ : ٢٢

هذا ، بينما نجد من أحكام المعاملات ما لم يعلل مثل :

﴿ **وأحل الله البيع وحرم الربا** ﴾ ٢ : ٢٧٥ .

-٣-

أقام الكاتب بناءه الفكري في مسألة الغنائم خاصة ، بعد فكره العام في نقص الإسلام علي أساسين ينتهيان به - بزعمه - إلي ترك العمل بحكم الغنائم المنصوص عليه في الآية ٤١ من سورة الأنفال ﴿ **واعلموا أنماغنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربي واليتامي والمساكين وابن السبيل ، إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا علي عبدنا يوم الفرقان ، يوم التقي الجمعان ، والله علي كل شيء قدير** ﴾ - هذان الأساسان هما ، علي حد قوله (أن القتال كان تطوعاً ، وأن التجهيز للقتال كان من شأن الجند) أما في أيامنا - يقول :

(فالجند مجبرون علي الخدمة ، وتجهيـز المقاتله ليس من شأن الجند ...) .

أقول : وهذا الأساس ، الذي بني عليه ترك العمل بالآية منها ومن عدة وجوه :

١ - أن فيه خلطا بين القتال وبين التجنيد الإجباري ، فجعل هذا هذا

وجعله أيام نزول الآية تطوعاً ، وجعله اليوم جبراً .

والصواب : أن التجنيد كان أيام الوحي فيي المدينة إجبارياً ، بمعني أن كل مسلم كان واجباً عليه التدرب علي فنون القتال وأسلحته ، كما أوجب الإسلام عليهم إعداد القوة . بل يذهب الإسلام إلي أبعد من ذلك ، حيث جعل استمرار التدرب علي السلاح واجباً ؛ إذ قال ﷺ : من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا » هذا ، وذاك : التدرب ،والاستمرار ، فرض عين علي كل مسلم ما امتدت به الحياة !!

٢ – وأما القتال فلم يكن اختياراً بل كان فرضاً ، ولم يكن تطوعاً مطلقاً ، كما زعم الكاتب ، بل لزاماً عاماً علي كل قادر عند التغير العام ، فقد كان الخروج معه ﷺ واجباً علي كل قادر من المكلفين به إلا لمن أذن له بالتخلف . ومن ثم حفل القرآن بالنعي علي الخالفين ، والقاعدين بغير عذر ، وسجل قصة الثلاثة الذين خلفوا . وهجرهم الرسول والمؤمنون حتي ضاقت عليهم أنفسهم ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، إلي أن نزل القرآن بتوبتهم .

قال الشافعي : فرض الله الجهاد عليهم بعد إذكان إباحة ، فقثال : ﴿ **كتب عليكم القتال** ﴾ ٢ : ٢١٦ .

ثم ذكر قوماً تخلفوا عن رسول الله ، ممن كان يظهر الإسلام ، فقال : ﴿ **لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لا تبعوك** ﴾ ٩ : ٤٢ . فأبان ، في هذه الآية ، أن عليهم الجهاد فيما قرب وبعد . قال : ثم أكد النفير إلى الجهاد ، فقال : ﴿ **إن الله اشتري من المؤمنين أنفسهم وأموالهم** ﴾

٩ : ١١١ .

وقال : ﴿ **انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله** ﴾ ٩ : ٤١ .

قال : فاحتملت الآيات أن يكون الجهاد كله ، والنفير خاصة منه ، على كل مطيق له ، ولا يسع أحداً منهم التخلف عنه ، كما كانت الصلاة والزكاة والحج .. واحتملت أن يكون معنى فرضها قصد الكفاية ، فيكون من قام بالكفاية ، في جهاد من جوهد من المشركين ـ مدركاً تأدية الفرض ، ونافلة الفضل ، ومخرجاً من تخلف من الإثم .. » [١] .

فأنت ترى تقرير الإمام الشافعي ، رضي الله عنه لحكم الجهاد إما على فرض العين ، وخاصة في النفير العام ، وإما على فرض الكفاية ، الذي تطالب به الأمة في مجموعها ، بحيث إذا لم يؤد أثم جميع أفرادها وهذا التقرير من أمام مجتهد إبطاله واضح لزعم صاحب المقال بأن القتال كان تطوعاً !!

ـ ٤ ـ

وأما تجهيز الجندي نفسه فلم يكن على الوجه الذي زعمه من أن الجندي يعد سلاحه من ماله الخاص فقط ، وأنه يأخذ نصيباً مفروضاً من الغنائم تعويضاً له عما أنفق على سلاحه . فتلك دعوى مرسلة ،

(١) راجع أحكام القرآن للإمام الشافعي ـ جمعه الإمام البيهقي .

ومزعومة ، لا دليل عليها ، ولا شبهة دليل . إنما هي من التخيلات التي يخالها كارهو شرع الله ليجعلوها عللا لأحكامه ، لترفض تلك الأحكام لعدم عللها الخيالية . (وهذه هى العلل التى توهن الإنقياد لحكم الشرع ، على ما سلف بيانه) .

أ ـ لقد فرض الإسلام للمجاهدين في سبيل الله سهما مفروضاً من الزكاة من سورة التوبة فكان الجندي في إعداد نفسه بالسلاح موكلا من الدولة في ذلك ، وهي تعطيه ما أنفق في هذا الإعداد ، وترصد ، من الزكاة ، سهماً لذلك .

ب ـ وكان لإعداد هذا السلاح نصيب ، أيضاً ، من الفئ الذي أفاءه الله علي رسوله ، من غير قتال من المسلمين . فكانت سنة رسول الله ﷺ فيما أفاء الله عليه أن ينفق منه على أهله وعلى مصالح المسلمين ، فما فضل جعله في الكراع والسلاح عدة في سبيل الله .

ج ـ وكان للدولة ، إذا ذاك ، (الحمي) وهي الأرض المخصصة لرعي أموال الزكاة ، التي للجند منها نصيب ، ورعى (الكراع) وهي الخيل التي كان يعدها الرسول ﷺ للجهاد من مال الفيء ، الذي منّ الله به على رسوله ، ما أوجف المسلمون عليه من خيل ولا ركاب . وهى (رباط الخيل) التي أمر القرآن بإعدادها مع ما يعدون من قوة الإرهاب عدو الله وعدوهم ولما فتح الله عليهم أرض العراق ، لم يجعل عمر أرض السواد من الغنائم التي تقسم علي الجند عملا بآية الغنائم من سورة الأنفال ، بل جعلها فيئاً تشملها اية الفيء من سورة الحشر ليعد بها

الجند ، ويحتفظ بخراجها الثغور .

د ـ وكان مفروضاً علي ذوي اليسار ، وأهل السعة أن ينفقوا في سبيل الله ، سبيل الجهاد وإعداد عدته ومؤونته .

وما منع ذلك كله تقسيم الغنائم علي ما أمر الله ، ولم يُقل لجندي واحد ، أمدته الدولة بالسلاح والمؤونة ، أو جهزه غني ذو سعه من سعته ـ إنك لا تستحق نصيباً من الغنائم ؛ لأنك لم تجهز نفسك .

فقيام الدولة بتجهيز المقاتل لا يمنع قسمة الغنائم علي ما شرع الله ، ولا هو جديد مستحدث ، كما زعم الكاتب . وقد قام رسول الله ﷺ ـ مع ما تقدم من إعداد السلاح والكراع والحمي ـ بإمداد الجيش ، في غزوة حنين ، بالسلاح ، الذي طلبه من صفوان بن أميه ـ وكان لا يزال علي كفره ـ بيعاً أو عارية . ثم قسم غنائم حنين ، علي كثرتها ، بما شرع الله ، وقال لهم ، لما استعجلوه القسمة : ليس لي من مالكم إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم .

فإذا كان الكاتب أقر بلسانه أن المقدس الذي لا يمس ولا يغير هو ما أوحي الله وما بينه رسوله ﷺ ، فقد بين ص بقوله وبفعله حقيقة المسألة التي ينازع فيها اليوم (وكيل حزب التجمع)[1] قال الإمام الشافعي ، في بيان ما ينفق فيه الفيء والغنيمة وما يختلفان : فالفيء والغنيمة يجتمعان في أن فيهما معا الخمس من جميعهما لمن سماه الله له .. ثم يفترق الحكم في الأربعة الأخماس ، بما بين الله تبارك وتعالي علي لسان

(١) حزب التجمعالاشتراكى هو الحزب الشيوعى بمصر .

نبيه ﷺ وفي فعله ، فإنه قسم أربعة أخماس الغنيمة علي ما وصفت من قسمة الغنائم لمن حضر من غني وفقير .

فالكاتب يحكم ما قرره في بيان المقدس ـ ملزم بما بينه رسول الله ﷺ في قسمة الغنائم ، مناقض نفسه بما زعم من أن آية الغنائم تخرج عن ميدان الممارسة اليوم ، هادم لأساس فكره بما تخيل من أساس لحكم الغنيمة غير ما يقرره القرآن (المقدس) ببيانه المنزل ، وما أوضحه الرسول ، وبين المراد منه بقوله وفعله .

وبانهيار الأساس الذي بني عليه فكره ينهار بناؤه بزعم الحاجة إلى تشريع جديد يتفق والمصلحة ، وتبقي الاية علي ما شرع الله ، ويبقي حكم تقسيم الغنائم علي ما تقرر الآية الكريمة .

ـ ٥ ـ

بقي علي هذا المتشرع بغير ما شرع الله أن ندكره ببعض حكَم ما شرع الله وأحكامة في موضوع الحوار :

١ ـ أن الدولة لم تحرم من نصيب من الغنائم إذ كان ، وما زال ، لها الخمس ؛ لذلك قال ﷺ : « ليس لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم » .

٢ ـ وللدولة (الفيء) وهو ما جاء بغير قتال ؛ وكان لرسول الله ﷺ ، وكان ينفقه علي النحو الذي سلف بيانه ، وهو للأمة من بعد .

٣ ـ ولها ـ مع الفيء ، وخمس الغنيمة ـ (الصفيّ) وهو ما يراه الإمام

نافعاً للجماعة ، ولا يؤتي ثمره بالملك الخاص ، يخرجه الإمام من القسمة .

٤ ــ ولها ــ مع ما تقدم ــ (الرّضخ) وهو ما يمنحه الإمام لغير الجند من الغنائم ، ممن قاموا بما ينفع المعركة ، وينفع الجند ولو لم يحضروا المعركة ، مثل من خاط لهم الثياب ، أو طها الطعام ، أو عالج الجرحي ..

٥ ــ تقسيم الغنائم علي ما شرع الله ، جزاء للجند علي بذل أنفسهم في سبيل الله ، وتعريضها لمواطن الخطر ، وتشجيعاً للنفوس علي الإقدام .

ومن وسائل هذا البعث النفسي إعطاء المقاتل (سَلَب القتيل) الذي قتله مهاجماً المسلمين ، فيأخذ ما كان يخص هذا المهاجم من مال وسلاح ، جزاء له علي مواجهته والثبات له وقتله .

٦ ــ راعي الشرع في توزيع الغنائم جانب العسكريين ، ومن أسهم في خدمة المعركة ، أكثر من مراعاة جانب المدنيين . وفي الزكاة ، والفيء ، راعي شرع الله جانب المدنيين أكثر من جانب العسكريين فامتدت ، بهذه الرعاية بجانبيها ، مظلة الأمن المادي حتي شملت الجميع ، وكافأت المجاهدين ، وراعت الجوانب النفسية ، والعقلية للإنسان ، وحفظت الشريعة ، وحافظت علي المصالح الدنيوية والأخروية في كل موقع ، ولم تعدم مصلحة لحساب أخري ، ونظرت إلي الإنسان في حاجته العقلية والنفسية ،

والجسمية ؛ فكانت أجمع للخير ، وأرعي للمصالح ، وأشمل للمنافع ، وأحفظ للحقوق ، علي الفرد وعلي الجماعة ... وهذا واضح لكل من أراد أن يفقه شرع الله[1]

- ٦ -

بقي علينا لهذا المتشرع أن نريه بطلان زعمه في علاقة العقل والمصلحة فيما شرع الله من العقائد والعبادات والمعاملات حيث جعل للعقل حق تعديل أحكام المعاملات ، باسم المصلحة ، وإلغاء النص ، وإن كان قطعي الثبوت قطعي الدلالة !

وهذا الذي ذهب إليه باطل من وجوه :

١ ـ أنه لو جاز إبطال بعض ايات المعاملات بحجة العقل والمصلحة لجاز إبطال بعض آيات الاعتقادات والعبادات ، بحجة العقل والمصلحة فيما يزعم بعض الناس ، فقد رأي بعضهم أن القول بالإله إقلال من شأن الإنسان ، وحجر علي حريته ، كما رأوا أن الصلاة تبطل ، وتعطل عن العمل[2] .

٢ ـ ولو جاز ما ذهب إليه الكاتب لبطل (معنى الشريعة) لأن ذلك المعنى يقتضي أن الشريعة تضع حدوداً لأفعال المكلفين ،

---

(١) ذلك ملخص مانشر في مقال بجريدة الأحرار ١٦ من رجب ١٠٤٧هـ ١٩٨٧/٣/١٦ .

(٢) هادى علوى : فى السياسة الإسلامية ط . دار الطيبة ـ بيروت .

وأقوالهم ، واعتقادهم ، وهذه الحدود هي ما تضمنته الشريعة بمعناها الجامع لكل ما أنزل .

فإن جاز تعدي حد واحد ، بدعوي المصلحة ـ جاز تعدي جميع حدود الشريعة في الاعتقادات والعبادات ، و سائر المعاملات ، وذلك بموجب حكم العقل الذي يستند إليه الكاتب وكل نظرائه ممن يكرهون تطبيق الشريعة ؛ لأن العقل حاكم بأن ما ثبت لشيء ثبت لمثله . وهذه كلية عقلية لا يمكن فيها التخلف البتة وإلا كان تفريقاً بين المتماثلات ، وهو ما يبطله العقل ، فالعقائد ، والعبادات و المعاملات ، التي أوحي الله أحكامها ـ كلّ من عند الله . وما أوحي الله ليس من حق أحد نسخه ، أو تعديله ، وقد اعترف الكاتب بذلك .

٣ ـ والقول بتعديل أحكام المعاملات مضاد للقصد من مجيء الشريعة ؛ لأنها جادت لتخرج الناس من أهوائهم . فإذا ما تركنا حكمها لرأي نراه فقد أخرجناها عن غرضها .

٤ ـ والمصالح التي يقال بها ، وباسمها يفترى ـ إنما تعتبر من حيث توجه خطاب الشارع لها ، لا من حيث رأى الناس وآرائهم فيها ؛ لأن من المصالح التى يراها الناس مالا يتوجه إليه خطاب الشارع . بل من المصالح ـ فى رأى الناس ـ ما يتوجه إليه خطاب الشارع بالإلغاء ، وذلك مثل المصالح التي يراها الناس في الخمر والميسر ، ومثل المصلحة التي يراها من يفرّ من ميدان القتال ، والتي يراها بعضهم في النوم إلي الضحي ، والتي يراها بعضهم في اكتناز المال . فالمصالح ليس أصلها

الإباحة علي الإطلاق ، والمضار ليس أصلها المنع علي الإطلاق ، ولذلك قال الله ﴿ **كتب الله عليكم القتال وهو كره لكم وعسي أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسي أن تحبوا شيئاً وهو شــر لكــم والــله يعلــم وأنتم لا تعلمــون** ﴾ ٢ : ٢١٦ .

فكان من المصالح ما يتوجه إليه الشرع بالإلغاء ، ومنها ما يتوجه إليه بالطلب . ومنها ما يسكت عنه ليكون في دائرة أبحاث المباحات الموكوله لحاجات الناس ودراساتهم . وهذه هي التي يتوجه إليها الاجتهاد بالإباحة أو المنع .

٥ ـ وعندما أقام الشرع للناس مصالحهم الدنيوية والدينية كان من مقاصده إخراج المكلف من دائرة هواه ، حتي يكون عبداً لله اختياراً ، إذ يطلب منه الدخول تحت هذا النظام ، والانقياد الإختيارى له ، والخروج إليه عن هواه والأخذ بالمصلحة ، كما يراها المكلف ، دون انقياد للشريعة ـ قصور في فهم الشريعة وتعطيل لبعض مقاصدها ، وهو تحقيق العبودية الاختارية .

٦ ـ والجري علي نسق الكاتب يتضمن إبطال معني التعبد في المعاملات ، لأن أحكامها لا تخلو من معني التعبد . وهذا المعني يضيع إذا تركنا أحكام المعاملات ، فضلاً عن القول بعدم صلاحيتها لزمان من الأزمان . وقد قال الله ﴿ **فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق** ﴾ المائدة : ٤٨ .

فحصر الأسر فى شيئين

ما أنزل الله ، الهوي ، ولا ثالث لهما ، وإذا كان كذلك فهما شيئان متضادان . وحين يتعين الحق في الوحي توجه الباطل لضده وهو الهوي ، ، فصار العدول عما أنزل الله ، بأي حجة من الحجج عدول عن الحق إلي الباطل .

٧ ـ والقول بحجحج المصلحة ، كما يراها قوم ، يجيز للآخرين القول بغيرها .

مما يؤول إلي تعارض الاتجاهات ، المؤدي إلي الشقاق ، والتقاتل ، وهو ما ينقض المصالح من حيث زعموا الوصول إليها .

٨ ـ تعليل أحكام المعاملات ، أو العادات ، كما يسميها علماء أصول الفقه ، ببعض العلل التي لم ينص عليها الشرع (مع التسامح في تسمية ذلك علة) لا يبيح ترك العمل بنصوصها عند عدم هذه العلل المستنبطة ، غير المنصوص عليها .

كأن يقال : كان تقسيم الغنائم علي المقاتلين ؛ لأن القتال كان تطوعا ولكذ وكذا أو يقال ـ وقد قيل ـ إن علة تحريم الربا هي الاستغلال من الدائن للمدين . فإن هذا التعليل ـ علي فرض التسليم به ـ لا يقتضي جعله مدار الحكم بأن يقال : إذا كان القرض لا استغلال فيه وكان بفائدة متعاقد عليها عند القرض ، معلومة المقدار ـ لا يكون حراما لعدم وجود الاستغلال ، فهذا التعليل لا يبيح ترك الحكم المعلل بهذه العلة المستنبطة ، والجزم علي الشرع بأنه قصد كذا وكذا ، بحيث يجوز أن نتعدي حكمه إذا لم نجد تلك العلة المستنبطة ؛ لأنه تعد مع

الجهل بالعلة الشرعية ، وهو تحكم من غير دليل ، وضلال علي غير سبيل !

ولو أخذ الناس بمقياس الكاتب ، في التعليل بما نري ، لم تنضبط وجوه المصالح ، ولتعذر الرجوع إلي أصل شرعي ، والضبط أقرب إلي الامتثال ، لذلك جعل الشرع (للحدود) مقادير معلومـة ، وجعل لها أسباباً لا تتعـداها ، وسماها العلماء (المقدّرات) كالثمانين ، والمائة ..

****

وبهذا ظهر بطلان ما ذهب إليه الكاتب بعموم نصوص الشرع ، وأصول قواعد الشريعة وفقه المسألة التي جعلها تطبيقاً لمبدئه فهل من مدكر ؟

ولله الحمد ، ومنه المنة والتوفيق .

فهرس الموضوعات

رقم الإيداع
١٩٩١ / ٧٠٥٧

I . S .B . N
977 - 5065 - 16 - X



مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية
مدينة العاشر من رمضان المنطقة الصناعية ب ٢ ت : ٣٦٢٣١٣
مكتب القاهرة : مدينة نصر ١٢ ش ابن هانىء الأندلسى ت : ٦١٨١٣٧